

الدريجة

مجلة علمية محكمة



تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق

الخطابة والتداولية نحو أداة إجرائية لتلقي النص الخطابي

دكتورة

منى فهمي محمد غيطاس

أستاذ الأدب والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات _ القاهرة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، حمداً يليق بجلالة و عظيم سلطانه ،
والصلاة و السلام على نبي الرحمة هادي الأمة ، محمد صلى الله عليه
وسلم .

وبعد

فالخطابة ، تكتسي أهمية كبيرة عند الإنسان ، فهي تحمل من
الطابع التواصلية ما يجعلها وسيلة من أنجع الوسائل التبليغية الفذة ،
إضافة إلى أنها من الصناعات الكلامية التي اهتم بها العلماء و الأدباء و
الفلاسفة و المناطق على السواء . فشكلت منذ القديم اتجاهاً يجمع الآراء
و الأفكار ؛ لسبر غورها ، و استكشاف معطياتها ، و الوقوف على
تقنياتها المنطقية و اللسانية و الأدبية . و قد التقت الإغريق بدءاً من
السوفسطائيين ، و مروراً بأفلاطون ، و وقوفاً على تنظيرات أرسطو،
و ما بعده . و عُدت من الصناعات التي أثارت الجدل و النقاش في
أوساط هذا المجتمع الإغريقي . و عدوها حاملة لألوان البرهان و
الحوار و جميع أصول الحجاج بغرض الإقناع و التأثير .

وقد اجتذبت الخطابة العرب أيضاً ؛ للبحث في هذا النمط
التواصلية ، فنطقت دراساتهم بتمكنهم من الوقوف على أسرارها البنائية
. و الخطابة وسيلة مهمة من وسائل إيصال الأفكار و بلوغ المآرب:
السياسية والاجتماعية و الإنسانية و الأدبية ، و المقاصد الحوارية حيث
تتفتح على كل وسائل الإثارة و الإقناع و التحاور. بل عُدت _ في جميع
أجناسها _ من أهم المجالات الأدبية التواصلية . و لما كانت التداولية
تهتم بدراسة اللغة من زاوية التخاطب و التفاعل الاجتماعي الحي ، و
إحكام الصلة بينها و بين المقام الذي ينتجها و أطراف التخاطب و

المرجع الذي تحيل عليه ، فإن الخطابة بوصفها شكلاً من أشكال التبليغ ، فإنها تستجيب عميق الاستجابة للمقاربة التداولية ، هذه المقاربة هي التي تكشف لنا عن أسرار التفاعل بين الخطيب و جمهوره ، و الوقوف على معايير إنجاز الوظائف الأدبية في الخطابة ، و الكشف عن آليات اشتغال التواصل الأدبي .

ولا يخفى على المتلقي للدراسات النقدية حول الخطابة ، اقتصار أصحابها - في الغالب - على تطبيق مقولات بلاغة العبارة أو البلاغة النمطية ، التي تقف عند تعيين الأساليب و الأشكال تطبيقاً تقليدياً ، لا يظهر من خلاله حيوية التفاعل الحي و التواصل الخطابى المثمر بين النص الخطابى و محيطه ، و لا تتضح فيه استراتيجيات القول ، ووظائفه ، و غيرها من المفاهيم التي تثري الدرس التداولي ، و بالتالي ، فإن تداولية الجنس الخطابى هي الوظيفة الوسيطة التي يضطلع بها هذا الأثر الأدبي المنتمي إلى منظومة من الأعراف و العادات القولية و التقاليد الجمالية النسبية .

وهذه التقنيات هي ما ركزت عليه النظرية التداولية ، من قصدية و متضمنات القول و استلزام حوارى و نظرية الأفعال الكلامية و نظرية الحجاج ، و كلها تبحث في كيفية فهم النص الخطابى ، و تأويله وصولاً إلى قصد المتكلم عبر وسائل لسانية تداولية ، و أخرى منطقية حجاجية . كما أن المنحى التداولي في دراسته للنص الخطابى ، يحتم على الناقد الأدبي أن يفتح على حقول معرفية و ثقافية لمعالجة هذا الجنس من الخطابات الذي يحتاج إلى فهم مكونات الشخصية المجتمعية ، وخصائص الوعي الجمعي ...

وهذا المنطلق قد أفضى إلى إشكالية البحث في سؤال عام مفاده :
ما الآليات الإجرائية لتلقي النص الخطابي ؟ و يتفرع عنه مجموعة من
الأسئلة و هي :

ماذا نقصد بصناعة الخطابة ؟ وما مفهوم التداولية ؟ وما أهم
التقنيات التداولية التي تصلح للتطبيق على النص الخطابي ؟ وهل تصلح
التداولية للتطبيق على الخطابة ؟ .

وأسعى من خلال الإجابة عن هذه الإشكاليات، الوصول إلى
الكشف عن مختلف الأبعاد و الآليات التداولية في الخطابة ، من أجل
إبراز دور الدراسات باللسانيات التداولية الحديثة في فهم النص الخطابي
وتحليله . من هنا كان اختياري لعنوان هذا البحث : الخطابة و التداولية
نحو وسيلة إجرائية لتلقي النص الخطابي ، و ذلك بهدف لفت الانتباه
النقدي لهذه النظرية ، و إعمال الدرس فيها بالاختيار و التنظيم و
العرض المنهجي لمفاهيمها و آلياتها ، وتيسير إجراءاتها للمقاربة
التحليلية للخطابة تحليلاً سليماً و منطقياً .

ثم جاء مبحثاً الدراسة لمعالجة هذه الإشكالية . فتخصص الأول
لنتناول الخطابة و التداولية في بعديهما النظري - التاريخي ؛ و ذلك
بهدف الوقوف على القراءة النظرية و التاريخية للخطابة خاصة ،
والعرض النظري للتداولية . ثم تلاه المبحث الثاني ليفصل الحديث عن
الآليات الإجرائية التي يلج بها الناقد النص الخطابي من خلال تناول
تداولية المتكلم و المخاطب و تداولية الخطاب سواء مع السياق أو
الخطاب في ذاته .

وتشكلت خاتمة البحث من مجموع اقتران الزوج : الخطابة
والتداولية ، وتلاها التوصيات و المقترحات . و قد اعتمدت في معالجة

موضوعات هذا البحث مجموعة المناهج أهمها : المنهج التداولي والوصفي ، فالتداولي انطلاقاً من أهم الأفكار التي جاءت بها النظرية التداولية ، و الوصفي ؛ لأنه يتناسب مع الدراسة اللسانية التداولية . وكذا استعنت بالمنهج التاريخي في تتبع ظاهرة الخطابة عبر عصورها وتطورها .

وكأي بحث لا ينطلق من العدم ، بل شكلت عدة بحوث مرجعية مفهومية ، و منهجية ، كانت منطلقاً لاختيار هذا البحث ، و استقيت من مياحه فكرته ، و أهمها :

كتابا د/ محمد العمري : في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية. والبلاغة الجديدة بين التخييل والتداول .

إلا أن وجود بحث مستقل يؤطر للآليات التداولية في معالجة النص الخطابي ، فهذا ما خلقت منه المكتبة النقدية ، لذا سعى هذا البحث لتغطية هذا الجانب الذي يفتقر إليه كثير من الباحثين .
والله ، اسأل أن أكون قد وفقت في النقاط الفكرة ، و نسجها وعرض أفكارها ، ثم الوصول إلى النتائج المبتغاة .

المبحث الأول : الخطابة - التداولية - مقارنة نظرية

أولاً : الخطابة : مقارنة نظرية - تاريخية

١ - ماهية الخطابة

١-١ في اللغة ٢-١ في الاصطلاح

٢ - وظيفة الخطابة : نظرة تاريخية

٢-١ في الثقافة العربية ٢-٢ في الثقافة الغربية

٣ - الطبيعة البنائية للخطابة

٣-١ الطابع التواصلي للخطابة

٣-٢ الإقناع و التخييل في الخطابة

٤ - التلقي النموذجي للخطابة في النقد الأدبي القديم

٤-١ تلقي الخطابة في النقد الغربي القديم ٤-٢ تلقي الخطابة في

النقد العربي القديم

ثانياً : التداولية : مقارنة نظرية

١ - ماهية التداولية

١-١ المفهوم اللغوي ٢-١ المفهوم الاصطلاحي

٢ - مفاهيم أولية : الخطاب - التواصل

٣ - التداولية و الحقول المعرفية

٤ - التداولية في الفكر النقدي القديم

ثمار المبحث

مقدمة

يختص هذا المبحث بالعرض النظري و التاريخي للخطابة في شقيها الغربي و العربي ، و لا يقف على استعراض تطورها عبر العصور القديمة أو الحديثة ؛ لأن هذا ليس من بؤرة اهتمامه ، وإنما يهدف إلى إلقاء الضوء على مفاهيمها و طبيعتها البنائية و وظيفتها ، ثم استعراض النظرية التداولية ؛ وقوفاً على ماهيتها و حقولها المعرفية ، ثم النشر المعرفي للجذور العربية للدرس التداولي الحديث ، وذلك لإيجاد قنوات اتفاق و جداول التحام بين تناول التداولي و الفن الخطابي ، و صلاحية الآليات الإجرائية التداولية للتطبيق على النص الخطابي بحكم طبيعته التواصلية و الإنجازية .

١ - ماهية الخطابة

١-١ في اللغة

تداولت المعاجم العربية القديمة الجذر اللغوي للفظـة " خطابة " ، والرحلة اللغوية التاريخية لاستعراض المعاني المختلفة التي أوردها علماء اللغة لهذا الجذر تكشف أن المعنى اللغوي يرتبط بأواصر قـربى مع المعنى الاصطلاحي . و بنظرة عـجلى على تلك التعريفات نقف على ذلك .

فقد جاء في كتاب " العين " الخطب : سبب الأمر . وفلان يخطب امرأة و يخطبها خطبة ، و الخطاب : مراجعة الكلام ، والخطبة : مصدر الخطيب " (١) . أما ابن فارس فيقول : " خطب " الخاء والطاء والباء أصلان : أحدهما الكلام بين اثنين، يقال : خاطبه

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، مادة (خ ، ط ، ب) .

يُخاطبه خطاباً ، والخطبة من ذلك . و الخطبة الكلام المخطوب به ...والخطب : الأمر يقع ، و إنما سمي بذلك لما يقع فيه من التخاطب و المراجعة^(١) . فابن فارس يعين علة تسمية الأمر بالخطب ، رابطاً ذلك بالمعنى الأساسي للجذر " خطب " و هو : الكلام بين اثنين ، ولا يخفى ما في ألفاظ (الخَطْبُ ، و الخُطْبَةُ ، و الخُطْبَةُ) من مراجعة و كلام بين طرفين ، ويضيف ابن منظور : " و قد خاطبه بالكلام خطابة مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان ... و رجل خطيب حسن الخطبة و ج / خطيب خطباء وخطب (بالضم) خطابة (بالفتح) صار خطيباً و المخاطبة المفاعلة من الخطاب و المشاورة"^(٢) .

والمفحص في المعاني اللغوية لمادة " الخطب " يجد تناسقاً واضحاً بينها و بين المعنى الاصطلاحي للخطابة ، فالخطابة تحتوي على أمر عظيم له سبب يتطلب التخاطب بين طرفين ، و المباشرة في الكلام ، كما أن لها حالاً معينة و شأناً عند الناس . و هذا المعنى اللغوي للفظ مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى الاصطلاحي لها .

١-٢ في الاصطلاح

لقد تجاذب النقاد و البلاغيون و الفلاسفة أطراف هذا الفن ، فأدلى كل بدلوه في بئر مفاهيمها بدءاً من أرسطو في كتابه " الخطابة " فحدد مفهومها الاصطلاحي بقوله : " فالريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"^(٣) . فالخطابة عند أرسطو " صناعة مدارها إنتاج قول تبنى به الإقناع في مجال المحتمل و المسائل الخلافية

(١) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، مادة (خ ، ط ، ب) .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (خ ، ط ، ب) .

(٣) أرسطوطاليس ، الخطابة ، الترجمة العربية القديمة ، تحقيق و تعليق عبد الرحمن

بدوي ، دار العلم ، بيروت ، لبنان ١٩٧٩ ص ٩ .

القابلة للنقاش ، بمعنى أنها علاقة بين طرفين تتأسس على اللغة و الخطاب ، يحاول أحد الطرفين فيها أن يؤثر في الطرف المقابل جنسا من التأثير يوجه فعله ، أو يثبت لديه اعتقاداً أو يمليه عنه ، أو يصنعه له صنعاً^(١).

ويعرفها ابن رشد " و الخطابة هي قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأشياء المفردة^(٢) ". و نراه يركز على الهدف من الخطابة وهو الإقناع ، و الإقناع في الخطابة لا يتخصص في علم معين ، بل في أي مقولة كانت ، و في أي جنس كان . و يعرفها الجرجاني " قياس مركب من مقدمات مقبولة ، أو مظنونة عن شخص معتقد فيه ، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم و ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ^(٣) ". و هو تعريف يجاري أهل المنطق في تعريفاتهم ، فهناك مقدمات مقبولة حول موضوع معين من شخص موثوق فيه ، تهدف للوصول إلى نتائج معينة تتعلق بالترغيب و الترهيب و الإقناع .

ولذا عدّها النويري من العلوم المنطقية الخمسة التي ذكرها في كتابه نهاية الأرب^(٤) . أما البلاغيون فينظرون إلى التفرقة بينها و بين الشعر ، فهذا أبو هلال العسكري ينظر إلى شكل الخطابة فيقول :

(١) حمادي صمود ، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب ، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، إشراف حمادي صمود ، سلسلة الآداب جامعة الآداب والفنون و العلوم الإنسانية تونس ص ١٢ .

(٢) ابن رشد ، تلخيص الخطابة ، تحقيق ، عبد الرحمن بدوي ، بيروت دبت ص ٧ .

(٣) الجرجاني ، معجم التعريفات ، تحقيق ، محمد صديق المنشاوي دار الفضيلة ، القاهرة ، ٨٧ .

(٤) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق ، مفيد قميحة ط ١ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩١/١٥ ،

"واعلم أن الرسائل و الخطب تتشاكلان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية^(١)". فالخطابة فن يعتمد على الموهبة ، يردفها خبرة و ممارسة ، و لذا صارت علماً من العلوم له قوانينه و قواعده و وسائله ، يجب على الخطيب إتباعها للوصول إلى غايته . فالخطابة يمكن تعريفها بأنها : فن نسج الكلام و إلقاءه في شكل جمالي للتأثير في نفوس المتلقين لاستمالتهم و إقناعهم بفكرة معينة .

٢ - وظيفة الخطابة : نظرة تاريخية

تعكس الخطابة صورة السياق الذي تلقى فيه ، و تكتسب طابع الحياة السائدة ، و تعكس صورة المجتمع عامة ، و الفرد خاصة . لذا ، وجدنا تباين غاياتها و أهدافها . فلقد عرف الإنسان الخطابة منذ القدم ، و قتما تولدت لديه الرغبة للتواصل مع الآخرين ، فضلاً عن إدراكه للغة و تعلمها و إتقانها ، زيادة في قدرتها على تبليغ حاجاته المتنوعة . فاتخذ منها وسيلة للتعبير عن مقاصده و إيصالها إلى الآخرين ، و اشتدت الحاجة إليها وقت الصراعات المختلفة (القومية ، السياسية ، الاجتماعية) لإيجاد وسائل خاصة لتغيير مسار حياته .

٢-١ في الثقافة العربية

عرفت الثقافة العربية الخطابة قبل مجيء الإسلام ، فرض العصر وجودها ، و وجدت البنية التي تفرضها خاصة ، لما عرفه المجتمع في تلك الفترة من الحكم القبلي و زعزعة النظم السياسية ، حيث عرفت ازدهاراً كبيراً لدواعٍ مختلفة منها : طبيعة العصر الفروسي ، و طبيعة

(١) أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، الكتابة و الشعر ، تحقيق ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٩٥٢ ، ص ١٣٦ .

الصحراء ، وتعصب العربي لقبيلته من دون غيرها ، و فخره بنفسه و قومه ، مما يبين " إلى أي مدى كانت الخطابة تسهم في الحياة الجاهلية عامة^(١) .

وأكد عصر صدر الإسلام أهميتها ، و سارت في ركاب الدعوة الإسلامية ، تخدم أغراضها و تنشر تعاليم الإسلام ، بل كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) خطيب تلك الفترة ، و أكفأهم ، حيث " واطب على إلقاء الخطب في الناس مبيناً ما حل الله و ما حرم ، و مطالباً في الوقت نفسه بأن تسود المجتمع العتيد روابط اجتماعية مبنية على الأسس التي جاء بها الإسلام ^(٢) .

وظلت الخطابة لها أهميتها في عصر الخلفاء الراشدين ، فكانت وسيلة لنشر تعاليم الشريعة الإسلامية ، و نشر الفضائل في نفوس المؤمنين والعمل بها ، إلى أن كثرت الفتن و الأزمات زمن الخلفاء ، فحاولوا إيجاد الحلول لمواجهتها و التصدي لها ؛ فاتجه الخلفاء إلى مخاطبة المسلمين لتهدئة النفوس النائرة . و شاركهم النساء الخطيبات في القيام بهذا الأمر. فينسب لهم الدور الفاعل في قيام المجتمع الإسلام آنذاك ، و تغيير مسار الأمور الموجودة في زمانهم .

وأضحت الخلافة في زمن بني أمية صناعة يسعى لاكتسابها و معرفة قواعدها : الخلفاء و الحكام و أصحاب الملل و النحل و غيرهم . ووظفت لخدمة الشأن السياسي و الاجتماعي آنذاك . و نظراً لوظيفة الخطابة في هذا العصر كانت محطة أساسية في الخطابة العربية ، و

(١) إيليا حاوي ، فن الخطابة و تطوره عند العرب ، دار الثقافة بيروت ص ٣٢ .
 (٢) سمير أبو حمدان ، الإبلاغية في البلاغة العربية ، منشورات عويدات الدولية ، بيروت ، لبنان ، ص ١١٧ .

عرفت ازدهاراً وتطوراً في موضوعاتها فقد " كان ظهور الفرق و الأحزاب السياسية في عصر بني أمية داعياً لازدهار لون من الخطابة ، يعتمد الجدل و قرع الحجة بالحجة ، فضلاً عن المهارة البيانية " (١) .

وكان الانفتاح على الثقافات المجاورة : اليونانية ، الفارسية من دواعي ارتقائها ؛ بل من الثمار التي جناها العقل العربي جراء هذا الانفتاح " أنه راح يتميز بقوة الجدل و المحاجة (٢) " .

وليس أدل على وظيفة الخطابة في هذا العصر ، دورها في الصراعات المذهبية، فظهر لون جديد يدعى (المناظرة) الذي شارك في تفعيل الخطابة و نشاطها (٣) .

وشهد عصر بني العباس استمراراً للصراع بين الخصومات ، و انتشرت الثقافة العربية و تنوعت مناهلها ، و استوعبت كثيراً من الثقافات

الأخرى ، الأمر الذي أدى إلى ازدهار الخطابة ، و وظفت لخدمة الأهداف القومية و السياسية ، و اتخذت أداة في بيان حق العباسيين في الحكم (٤) . و لم يقل الحال أهمية في الأندلس، فقد عرف العصر هذا الفن وذلك لانجاز اللغوي الفعال ، على غرار ما كان منتشرأ من الفنون الأدبية في المشرق العربي .

(١) إحسان النص ، الخطابة السياسية في عصر بن أمية ، دبت ، ص ١١٥ .

(٢) سمير أبو حمدان ، الإبلالية في البلاغة العربية ص ١٢٠ .

(٣) ينظر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) ينظر محمد طاهر درويش ، الخطابة في صدر الإسلام ، العصر الديني ، عصر

البعثة الإسلامية ، دار المعارف ١٩٦٥ ص ١٠٨ .

وأضحت الخطابة في العصر الحديث صناعة للكلام ، و ظهر عدد كثير من الخطباء منذ بداية عصر النهضة ، يسعى صاحبها إلى تحقيق هدف معين : سياسي ، اجتماعي ، ثقافي ...

٢-٢ في الثقافة الغربية

اعتبرت الثقافة الإغريقية المههه الذي احتضن هذه الصناعة الكلامية ، بل اتجهت إلى درس قواعدها ، و شككت دراساتهم تلك الحصه الأكبر و النصيب الأوفر في هذا العلم ، فقد بلغت عنايتهم به مبلغاً كبيراً ، بل و السعي إلى امتلاك ناصيته . و كان السوفسطائيون هم أول من أولوا به اهتماماً و هم يعدون " حركة فلسفية و ظاهرة اجتماعية ، برزت في القرن الخامس قبل الميلاد . و قد تميز روادها بالكفاءة اللغوية ، و البلاغية و الخبرة الجدلية ، و يتجلى ذلك من خلال تسميتهم التي كانت تعني الحكيم الخبير بكل فن و أسلوب (١) " . فقد كان الناس يترددون إليهم لاكتساب فنون و أساليب هذا العلم و تمرسه ؛ إذ " كانوا يعلمون الشبان في أثينا طرق التغلب على خصومهم في ميدان السبق الكلامي ، وكيف

يغالطونهم ، و كيف يلبسون عليهم الحقائق (٢) " .

بل تعد حدود اهتمامهم بالخطابة إلى الاستعانة بها في استمالة العقول ، و محاولة إبعادها عن ميثاقيزيقا الفلسفة و المنطق التي طغت على الحياة الفكرية و اللغوية آنذاك ، و استعانوا في سبيل تحقيق هاته الغاية " بخبرة بالغة في مقامات الناس و القول معاً ، و أيضاً بآليات إجراء اللغة بحسب المقاصد و الظروف التواصلية (٣) " . و قد كانوا " يستهلون

(١) محمد سالم الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في بلاغة النقد

المعاصر دار الكتاب المتحدة ، الطبعة الأولى حزيران / يونيو ٢٠٠٨ ص ٢٤ .

(٢) محمد أبو زهرة ، الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب ، دار

الفكر العربي ، الطبعة الأولى مارس ١٩٣٤ ص ٩ .

(٣) محمد سالم الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في بلاغة النقد

المعاصر ص ٢٥ .

خطبهم بإثارة القضايا العامة ، ثم ينتقلون فيها إلى الأمور الخاصة التي يريدونها (١) . ومنه تتجلي لنا وظيفة و أهمية الخطابة في الفكر السوفسطائي .

وكان للبيئة الإغريقية الدور الأكبر في الاهتمام بالخطابة ، و ازدهارها ، حيث توفرت لها الظروف المناسبة في ظل نشر الحرية و الديمقراطية ، و فرض الحقوق السياسية ، و تحقيق العدل و المساواة . و مع الانتشار المجتمعي للخطابة و ممارستها ، صار ضروريا انتقالها من ميدان العملية إلى الساحة النظرية ، فأضحت علماً و صناعة لها قوانينها و قواعدها التي ينطلق منها في بناء أي خطابة و العودة إليها في التحليل و الدراسة .

و بلغ الاهتمام بالخطابة مبلغه في هذا العصر ، بدراسات أرسطوطاليس ، حيث إن هناك من جعله فارس هذه الصناعة و معلمها ، فقد جعل مجموعة من محاضراته كتاباً سماه " الخطابة " جمع فيه مفاهيم هذا العلم و استنبط أصوله و قوانينه . و اعتبر الخطابة أداة فاعلة ذات وظيفة إقناعية تأثيرية ، تجعل من الخطاب الوسيلة المناسبة لتحقيقها .

وشهدت الثقافة اللاتينية ازدهارا للخطابة لتوظيفها في السياقات السياسية والاجتماعية . و لنجاعتها لجأ الناس إليها للقضاء على الأنظمة السياسية السائدة في تلك الفترة ، فحين " ناهض الشعب الروماني الأرستقراطية في القرن الأول قبل الميلاد ، كانت الخطابة عماده في كفاحه ، و كان

(١) دليل محمد بو زيان و آخرون ، إعداد و تقديم مخلوف سيد أحمد ، تجليات علاقة اللفظ بالمعنى في الفكر اليوناني ، من خطاب البنية إلى بنية الخطاب ، ضمن كتاب اللغة و المعنى ، مقاربات في فلسفة اللغة ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م ص ٢٣ .

شيشرون أعظم خطبائه^(١) . و كان للدور الفاعل للخطابة حضوره في اهتمام رجال الدين و الكنيسة بها ، و اتخذوها وسيلتهم في الدعوة الدينية والتبشيرية ، فلجئوا إلى الملكة اللغوية ، واستغلالها في تحقيق مقاصدهم الدينية .

وتبوءت الخطابة في العصر الحديث مكانة كبيرة في ظل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها هذا العصر. فكانت فرس الرهان لمن يريد بلوغ الهدف و تحقيق المقاصد .

٣ - الطبيعة البنائية للخطابة

٣-١ الطابع التواصل للخطابة

إن التواصل اللغوي الاجتماعي هو الوسط الطبيعي الذي يعيش فيه الإنسان ، و هو الهواء الذي يتنفسه ، و به يرتقي فكره ، و به يتمكن من التأقلم مع محيطه الاجتماعي . و ما التواصل الأدبي إلا شكل من أشكال تطوير التواصل الاجتماعي . و تجسد الخطابة - في جميع أجناسها - أهم المجالات الأدبية التواصلية ، و التي تكشف عن أسرار التفاعل بين الخطيب و جمهوره ، بل هناك من اعتبر أن الخطابة " ليست بجنس أدبي أو بلون من ألوان الكلام الفني في أي حضارة من الحضارات ، بل هي شكل من أشكال التواصل الاجتماعي ، أو الآداب الاجتماعية في سياسة الأفراد للمجموعات عبر الكلام"^(٢) . فالخطابة من هذه الزاوية نسيج اجتماعي يشمل مناحي الحياة ، فهي صناعة قولية إقناعية

(١) محمد طاهر درويش ، الخطابة في صدر الإسلام - العصر الحديث - عصر البعثة الإسلامية ، دار المعارف ١٩٦٥ ص ١٠٨ .

(٢) صالح بن الهادي رمضان ، التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية ، المركز الثقافي العربي ط ١ ، ٢٠١٥ ص ١٠٨ .

المتلقي / السامع على الاقتناع بمقدمات مختلفة الصحة في جميع الموضوعات .

فالخطابة لا تطمح إلى تحقيق جمال القول بشكل مطلق ، بل تلتحم بالظرف التاريخي ، و ظروف التلقي و ما يمليه من مؤثرات اجتماعية و نفسية لأحوال السامعين . فهي تؤسس لفعل يراعي التفاعل التخاطبي في كل مقام من مقامات القول ، فالخطيب لا يتجه في خطبته إلى طرف تخاطبي في كل مقام من مقامات القول . فالخطيب لا يتجه في خطبته إلى طرف تخاطبي صادفها ، كلا ، بل إنه يدخل عالم الخطبة من خلال وضعية اجتماعية و عالم فكري و اجتماعي مخصوص . فالخطابة العربية - منذ العصور الشفاهية حيث كانت تملأ الفضاء العام في الجاهلية - على اختلاف مقاماتها أسهمت في تنظيم الحياة العامة ، و ما ذاك إلا تأكيد للبعد التواصل للخطابة . يرتكز الاتصال الخطابي على التفاعل الاجتماعي بينطرفين المتحدث و المتلقي ، ويعتمد التفاعل اعتماداً كاملاً على التواصل ، فبدون التواصل لا يوجد تفاعل ، ففيه ينشأ التجاذب أو التنافر ، و به يتم التجانس أو يظهر التباين . و حسب هذا المفهوم ؛ فإن الحدث الاتصالي/الخطابي يدور حول الأثر الإقناعي كهدف يحكم التفاعلية الاتصالية .

٣-٢ الإقناع و التخييل في الخطابة

هناك علاقة تفاعلية بين المخاطب و المخاطب ، تعرف بالوظيفة التفاعلية ، و هي التي يقيم الناس بها علاقاتهم الاجتماعية و يحققون لأنفسهم غاياتها بهدف التأثير و الإقناع . و تهدف الخطابة إلى غاية واحدة و هي الإقناع ، فهو عنصر مهم منها ، و يعرف الإقناع بأنه " مجموع قوانين تعرف الدارس طرف التأثير بالكلام ، و حسن الإقناع

بالخطاب ، و هو مظهر من مظاهر الإحساس بقوة الكلام و جدواه ، الذي لا يتم إلا في ظروف خاصة ^(١) ، أي ما ينبغي أن يتجه إلى المخاطب من المعاني في الموضوعات المختلفة ، و ما يجب أن تكون عليه ألفاظ الرسالة و أساليبها . بل إن الإقناع يعد المحور الذي يدور عليه تعريف أرسطو للخطابة . فعرفها بأنها " قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة ^(٢) " . و يعرفها أيضاً بأنها " صناعة مدارها إنتاج قول تبنى به الإقناع في مجال المحتمل و المسائل الخلافية القابلة للنقاش ، بمعنى أنها علاقة بين طرفين تتأسس على اللغة و الخطاب ، يحاول أحد الطرفين فيها أن يؤثر في الطرف الآخر ^(٣) " . فتعريف أرسطو للخطابة يدل على أنها مَلَكَةٌ لتنظير لما هو مناسب للإقناع في كل حالة ، أي التنظير لكل أشكال الخطاب التي تحدث للإقناع .

فالإقناع بهذا التصور هو عملية فاعلة تحمل الفرد على التصرف و التفكير الإرادي ، وفق القائم بالإقناع الذي لا يكتفي بمجرد استقبال الرسالة / الخطابة ، وإنما يستهدف إحداث الإقناع لدى الجمهور المستهدف . و تقوم الخطابة على عنصر الإقناع بهدف إحداث عملية تأثير مباشرة و قصدية على آراء و سلوكيات و معتقدات الأفراد . " ففاعلية الاتصال تتوقف بالنسبة للخطيب على الخلق المسبق لمجال للوفاق و التفاهم ^(٤) " . وقد ذكر أرسطو أن هناك ثلاثة أنواع من

(١) محمد أبو زهرة ، الخطابة أصولها ، تاريخها " في أزهى عصورها عند العرب ، دار الفكر العربي المعاصر ص ٧.

(٢) أرسطو ، فن الخطابة تحقيق عبد الرحمن بدوي ، ص ٩ .

(٣) حمادي صمود ، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، ص ١٢ .

(٤) محمد بركان ، الاتصال الإقناعي من خلال الخطابة مقارنة نظرية مع دراسة تحليلية لنماذج من خطب الإمام علي بن أبي طالب ، ماجستير كلية الآداب و اللغات ، جامعة الجزائر ، ٢٠٠٢ ص ٤٨ .

التصديقات التي قد يلجأ إليها المتكلم من أجل الإقناع ، يقول : " فأما التصديقات التي نحتال لها بالكلام فإنها أنواع ثلاثة ؛ فمنها ما يكون بكيفية المتكلم وسمته ، و منها ما يكون بتهيئة السامع و استدراجه نحو الأمر ، و منها ما يكون بالكلام نفسه قبل التثبيت ^(١) . و منه نرى أن الإقناع في الخطابة يرتهن بمجموعة من المعطيات ؛ منها ما يرتبط بالمتكلم و منها ما يتعلق بالمتلقي ، و منها ما يبقى على صلة بالرسالة اللغوية نفسها . لذا لا بد أن تخضع الأقوال لقواعد و ضوابط تحدد فائدتها الإقناعية .

وبهذا تتحقق الغاية من العملية الإقناعية ، و هي التأثير بالقول على المخاطب قصد الاقتناع ، أو قصد إفهامه مقصوداً محدداً ، و من هنا يكون التوجه إلى المخاطب في مناسبة معلومة و في موضوع خاص بمراعاة شروط تحصيل المطلوب .

يخضع الإقناع للقوانين التي تحكم عملية الإدراك و المعرفة و الدافعية ، و على هذا يعتمد الإقناع في الخطابة على الوسائل المنطقية - الدلالية و الوسائل اللغوية ، و يضاف إليها وسائل أخرى غير لغوية ؛ كالرمز و الإشارة و حركة الجسد . و يمثل الحجاج ^(٢) عمدة الوسائل المنطقية - الدلالية و يلعب دوراً فاعلاً في الإقناع ، ترفده العناصر التخيلية و الأسلوبية، و التي تتدخل في إيصال المحتويات و الدلالات ، أي تحقيق

(١) أرسطو ، الخطابة ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ص ٩.

(٢) يجد الحجاج جذوره و خصائصه في كل أنماط الخطاب و الخطابة ، و ما تشتمل عليه من جدل و تبرير و إقناع . لذا كان مفهوم الحجاج منذ القدم تابعاً تبعية عضوية و استعمالية لمجالات أفعال تتطلبه و تستدعيه ، أما بعض الأبحاث و الدراسات الحديثة فقد جعلت منه موضوعاً خاصاً بها ، حيث تفاعلت هذه الدراسات مع اللسانيات و المنطق و الفلسفة ، و من منظور هذه الدراسات يشير الحجاج إلى ذلك الخطاب الصريح أو الضمني الذي يستهدف الإقناع و الإفحام معاً ، مهما كان متلقي هذا الخطاب ، و مهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك .

التأثير . لأن هذه العناصر تتعلق بكيفية انتقاء عناصر العبارة ، و تتناغم الأصوات اللغوية و إيقاع العبارة و نبراتها و الاستعارة و الاشتقاقات ، و باقي الطاقات الإبداعية و التعبيرية التي تلعب دوراً متناقضة بالنسبة لوضع الحجج داخل النص الخطابي .

إن للكلمة المستعملة مجازاً معنيين : المعنى المألوف في الخطاب الحرفي والمجازي ، ويكون مختلفاً باختلاف المقام أو السياق . و تكمن حاجية المعنى في اختيار المتكلم للوجهة المجازية التي يستطيع بها إقناع المخاطب بالمعنى الحقيقي . بل إن المعنى التخيلي أو المجازي - في نظر أرسطو - هو المعبر الحجاجي إلى المعنى الحرفي أو الحقيقي وهو عنصر من عناصر التأثير الوجداني على السامعين . فالخطابة من أهم وسائل تبليغ الأفكار للآخرين ، و أداة بارزة في إقناع السامعين واستمالتهم والتأثير فيهم .

٤ - التلقي النموذجي للخطابة في النقد الأدبي القديم

الخطابة صنو الشعر ، و هي تختلف في طبيعتها عن طبيعة الشعر ، الذي يهدف إلى التخيل ، الذي هو ترويح عن النفس . أما الخطابة فطبيعتها الهادفة إلى الإقناع ، الذي يستوجب التصديق و القيام بالفعل حسب الأحوال و الاحتمال . و من أجل ذلك حرص النقاد على الفصل بينهما في تناول النقدي .

٤- ١ تلقي الخطابة في النقد الغربي القديم

لقد حمل أفلاطون في محاوراته على الخطابة ؛ لاهتمامها بالإقناع بدل البحث عن الحقيقة ، على الرغم من أن الخطابة في الحياة اليونانية كانت قائمة على نظام ديمقراطي ، يلعب فيه الإقناع دوراً مهماً ، سواء في المجالس الاستشارية أو المحاكم أو المحافل . و من هنا لم تكن نشأة التفكير النظري في الخطابة من داخل نظرية الأدب ، بل اندرج هذا التفكير في صلب نظرية المعرفة عند اليونان و في سياق الجدل الذي انقح بين أرسطو و أفلاطون حول جدوى الأقاويل الخطابية ، و إشكالية الأقاويل السفسطائية التي انتشرت في الخطابة اليونانية . و لقد أسلم هذا الرفض المعرفي أرسطو إلى البحث عن الفرق بين الخطابة و الجدل

أو الاستدلال . فلحظ أنهما مجالان مختلفان ، و أن المجال الخطابي لا يمكن أن يخضع لمعايير المعرفة البرهانية التي يفضلها أفلاطون على سائر المعارف . و من هذا المنطلق كانت مقولة الخطابة عند أرسطو ذات طراز معرفي متميز عن المنطق و الفلسفة ، و سعى إلى تمييزها عن الشعر ، فوضع كتاباً في الخطابة و آخر في الشعر . لذا عد أرسطو " أستاذاً لمن بحث بعده في موضوع الخطابة من القدماء ، و اكتست نظريته في التأثير حسب الاحتمال ، و ما يقبله الجمهور أو يرفضه ، أهمية كبيرة عند المحدثين (١) " .

عرف أرسطو الخطابة تعريفاً خاضعاً لمقولة (الشرط الكافي الضروري) ، وهي أن الخطابة صناعة كلامية تتكلف الإقناع و

(١) محمد العمري ، في الخطاب الإقناعي مدخل نظري و تطبيقي لدراسة الخطابة العربية ط٢ أفريقيا لشرق ٢٠٠٢ ص ١٩ .

الاستمالة بالمقدمات المشهورة في جميع الأمور المفردة بأمثلة مستمدة من الداخل (الحجج و الأفيسة و الأمثلة) و الخارج (الشهود الحقيقيون ، صورة الخطيب) و بأقيسة مضمرة .

وعناصر بناء الخطابة ثلاثة : ١- وسائل الإقناع أو البراهين ٢- الأسلوب أو البناء اللغوي ٣- ترتيب أجزاء القول ، ثم هناك عنصر الإلقاء ويتضمن الحركة و الصوت (١).

وبهذا الفهم تعامل أرسطو مع أنواع الخطابة الثلاثة : الاستشارية والقضائية والاحتفالية . ونظر في حديثه عن عناصر بناء الخطاب إلى الأطراف الثلاثة المكونة له ، و هي : الخطيب (المرسل) ، المستمع (المتلقي) ، و الخطبة (الرسالة) . و لقد عالج في العنصر الأول : (المرسل) مفهوم البراهين بحسب تعلقها بالخطيب ، و مدى انسجامه مع الجمهور ، و ذلك حسب أنواع الخطابة الثلاثة .

والعنصر الثاني : (المستمع) ، عالج فيه عدداً من الانفعالات و الأهواء ، و كذا بعض البراهين غير أنها هذه المرة بحسب تلقيها ، و ليس بحسب تصورهما كما لدى المرسل . ثم العنصر الأخير: (الخطابة) و عالج فيها الأسلوب أو البيان أي الصور البلاغية و تنظيم أجزاء القول (٢).

(١) راجع : أرسطو ، الخطابة ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ص ١٨١ " إن اللاتي ينبغي أن يكون القول فيهن على مجرى الصناعة ثلاث (إحادهن) : الإخبار عن أي شئ تكون التصديقات ، و (الثانية) ذكر اللاتي تستعمل في الألفاظ ، و (الثالثة) أن كيف ينبغي أن تنظم أو تنسق أجزاء القول .

(٢) راجع هشام الرفي ، الحجاج عند أرسطو ، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية عن أرسطو إلى اليوم ص ٤٩ .

٤- ٢ تلقي الخطابة في النقد العربي القديم

أسهمت الخطابة بمختلف مقاماتها في تنظيم الحياة العامة منذ العصر الجاهلي ، كما فتح كتاب الخطابة لأرسطو أفق الانتظار الجمالي و الفكر العربي القديم . فوجدنا صحيفة ^(١) بشر بن المعتمر وسيلة في تعليم الخطابة ^(٢) فاحتوت على يخص الخطيب ، و الخطبة ، و ما يتعلق بأحوال المستمعين . و يعتبر مشروع الجاحظ " البيان و التبیین " ، وسيلة للحوار في عصره بين الفرقاء في المجال الفكري و السياسي ، الحوار من خلال الرصيد الخطابي العربي من جهة و أحوال المخاطبين من جهة أخرى ، المهم : كيف يكون الخطاب ناجعاً فاعلاً ، مع ما يؤدي إليه هذا المسعى من مفارقة بين " الجمال و المنفعة العملية الآنية " ^(٣)

و لعل من أبرز مقولات الكتاب مقولة المقام ^(٤) التي استند إليها الجاحظ في رصد خصائص الأجناس الشفهية الفرعية (كخطابة إصلاح ذات

(١) الجاحظ ، البيان و التبیین ، تحقيق عبد السلام هارون ١٣٦/١ .

(٢) ترددت هذه الآراء مع الزيادة و النقص في مؤلفات البلاغيين بعده مثل البرهان في وجود البيان لابن وهب و غيره من كتب نقد الشعر و الفلسفة .

(٣) محمد العمري ، البلاغة الجديدة بين التخييل و التداول ، ط أفريقيا الشرق ٢٠١٢ ، ص ٣٩ .

(٤) هناك دلالات ثلاث للمقام أولها دلالة غير اصطلاحية ، و فيها يكون المقام مرادفاً للفضاء العمومي التواصل ، و لمقتضى الحال و للطرف الخارجي الذي ينجز فيه الكلام ، و تتخذ فيه المواقف ، و يسلك فيه الإنسان سلوكاً ما ، يقال إنه ملائم للمقام أو غير ملائم ، و يقال : لكل مقام مقال ، و ارتبطت الدلالة الثانية بجنس الخطاب الذي يسمى المقام ، أي خطاب حلقة الزهد و الوعظ التي يلقي فيها الخطب أقوالاً تذكر بيوم القيامة ، و تحث على صالح الأعمال و قد يصوغ فيها القصص و يسرد الأخبار و العبر جلياً للانتباه و التأثير . و أما الدلالة الثالثة للمقام فقد تمخضت لترادف السياق التخاطبي الذي ينتج مختلف أجناس الكلام الأدبي و غير الأدبي ، راجع صلح بن الهادي رمضان ، التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية ص ٢٠ .

البيان و خطابة بين السماطين و خطابة الوفود) و هي البلاغة الغلبة للجانب النفعي الإقناعي الخطابي . فبأي شيء أدركت المعنى ، فذلك هو البيان " لأن مدار الأمر على البيان و التبيين و على الإفهام و التفهيم"^(١) . كما أدرك الجاحظ مقومات الروح الأخلاقية والاجتماعية في هذا المقام الكبير. فإدراك المقام في رؤية الجاحظ البيانية ، ملكة تواصلية خاصة بالسياق الذي تتجز فيه الأعمال اللغوية ذات الصيغة التفاعلية الاجتماعية كالإيجاز و الإطناب و التوبيخ و الشكر و الاعتذار و العتاب و التويه .

إن مقتضيات الحال أو المقام معطى موضوعي ، يكشف للباحث مستويات تحليل الخطاب و مراتب تصنيف الظواهر الكلامية . و قد ظهرت آثار الجاحظ في القراءات اللاحقة ، ابتداءً من العسكري و انتهاءً بابن سنان . فقد أخذنا من الجاحظ أهم مكونين للخطاب الإقناعي و هي : المناسبة و الاعتدال^(٢)

التداولية مقارنة نظرية

١ - ماهية التداولية :

لقد عد مفهوم التداولية من أبرز و أهم المفاهيم النقدية الحديثة التي تعسر على العلماء و النقاد و صعب عليهم الإلمام بتعريف دقيق جامع لها . ذلك كون هذا المفهوم يتشكل من روافد معرفية مختلفة ، و لا يمتلك حدوداً واضحة بل يشترك بعلاقة مع جملة من التخصصات

(١) الجاحظ ، البيان و التبيين ١ / ٢٣ .

(٢) محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها ط أفريقيا الشرق ١٩٩٩ ص ٤٣١ - ٤٤١ .

الأخرى . و سيحاول البحث عرض جملة من التعريفات اللغوية و الاصطلاحية التي تعكس التنوع المعرفي الذي نشأت فيه التداولية .

١-١ المفهوم اللغوي :

سلكت المعاجم العربية طريقاً واحداً في التعريف اللغوي للتداولية . فيرجع هذا المصطلح في أصله العربي إلى الجذر اللغوي (دَ و لَ) و له معانٍ مختلفة ، لا تخرج في مجملها عن معاني التبدل و التحول و الانتقال . فالدولة و الدولةُ : العقبة في المال و الحرب سواء .

وقيل الدولة بالضم في المال و الدولة بالفتح في الحرب ، و قيل هما سواء فيهما يضمنان و يفتحان ... قال الجوهري : الدولة بالفتح في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال كانت لنا عليهم الدولةُ و الجمع الدُولُ ، و الدولة بالضم في المال ، يقال صار الفتى دولة بينهم يتداولونه مرة لهذا و مرة لهذا ، و الجمع دُولَاتٌ و دُولٌ . و قال أبو عبيدة الدولة بالضم اسم للشيء الذي يتداول به ... (١).

و يلاحظ أن المعنى واحد تقريباً ، و هو الدوران و التعاقب ، و انتقاله من شخص لآخر، أو من مكان إلى مكان .

أما ابن فارس في مقاييسه فنجد يقول : " دَوْلٌ : الدال و الواو و اللام أصلان : إحداهما بدل على تحول شيء من مكان إلى مكان ، و الآخر يدل على ضعف و استرخاء . فأما الأول : قال أهل اللغة : الدال القوم إذا تحولوا من مكان إلى مكان ، و من هذا الباب تداول القوم الشيء إذا صار من بعضهم إلى بعضهم . يقال : الدولة في المال و الدولة في

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة دَ و لَ .

الحرب ، و سمي بذلك من قياس الباب ؛ لأنه أمر يداولونه فيحول من هذا إلى ذلك ، و من ذلك إلى هذا ^(١).

فالتعاقب و التناوب و انتقال المال أو الملك من قوم إلى قوم آخرين ، و تحول الدهر أو الحال من حالة إلى أخرى ، هي المعاني التي أرسنها المعاجم العربية للجذر اللغوي (دَوَّلَ) التي توافق مصطلح التداولية هي دلالة التحول و الانتقال . فهذه المعاني تقتضي وجود أكثر من طرف واحد يشترك في فعل التحول و التغيير و التبديل و التناقل .

" و تلك حال اللغة متحولة من حال لدى المتكلم إلى حال أخرى لدى السامع ، و منتقلة بين الناس ، يتداولونها بينهم ، و لذلك كان مصطلح (التداولية) أكثر ثبوتاً بهذه الدلالة من المصطلحات الأخرى : الذرائعية ، النفعية ، السياقية) ^(٢).

فمن المعروف أن مفهوم النقل و الدوران مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة و في نطاق التجربة المحسوسة . ففي الأولى تدل على معنى التواصل ، و في الثانية تقتضي التفاعل . و هنا يقتضي التداول أن يكون القول موصولاً بالفعل .

١-٢ المفهوم الاصطلاحي

لم يكن واحداً ففيل - طبقاً للترجمة الحرفية - Pragmatique لم يتفق اللغويون على تعريف محدد للتداولية كما أن ترجمة المصطلح البراغماتية ، البراجماتية ، و قيل التداولية ، المقامية ، الوظيفية ، النفعية ، إلا أن مصطلح التداولية هو الأشهر ، و كذا لتوافقه مع الدلالة

(١) ابن فارس ، مقاييس اللغة تحقيق و ضبط عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ص ٢ ١٩٩٧٩ ص ١٤ مادة (دَوَّلَ).

(٢) خليفة بو جادي ، في اللسانيات التداولية ، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، بيت الحكمة للنشر و التوزيع ، العمة ، الجزائر ط ١ ٢٠٠٩ ص ٦٣ .

اللغوية . و على هذا وجدت تعريفات كثيرة للتداولية تدور حول مضمون واحد ، وهو علاقة المتكلمين بالسياق ، أو تعالق البنية اللغوية بمجال استعمالها . و من أبرز هذه التعريفات ما قدمه فرانسيس جاك : " تنطرق التداولية إلى اللغة كظاهرة خطابية و تواصلية و اجتماعية معاً " (١) .

وهناك تعريف لساني آخر لماري دير و فرانسوا ريكاني بأنها : " دراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدة على ذلك مقدرتها الخطابية " (٢) .

وهنا يمكننا أن نقف عند النقاط التالية :

- التداولية علم يهتم بدراسة اللغة الإنسانية في الاستعمال .
- تسعى التداولية إلى الكشف عن المقدرة الإبداعية التي تحققها العبارة اللغوية .

- التداولية بحث في الدلالات التي تفيدها اللغة في الاستعمال .
أي ، كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم ، أو دراسة معنى المتكلم . و الجدل واسع بين مختلف النظريات التداولية في تعريفها ، و خاصة بين النظرية الخطية التي ترى أن التداولية " علم لساني يهتم بالعلاقات و مراجعها (٣) " . و يتزعمها شارل موريس و فرانسوا راسنيه ، و النظرية المدمجة " و التي ترى أن للعلاقة مكونين : مكوناً لسانياً و آخر تداولياً و عنهما مجتمعين ينتج معنى القول (٤) " التي تزعمها آلان برونونير و

(١) فرانسواز أرمينيكو : المقاربة التداولية ترجمة سعيد علوش ، ص ١٢

(٢) السابق ص ٨

(٣) صالح بن الهادي رمضان ، التواصل الأدبي ص ٢٩ .س

(٤) السابق ، نفس الصفحة .

أوزولد ديكر و جان كلود أنسكومبر . و هم جميعهم يهتمون بقواعد الخطاب و أثره في تطوير علم الدلالة التداولي .

إن مفهوم التداولية نتيجة حاصل معرفي نتج من تلاقي جملة من علوم الخطاب و علوم التواصل ، و هو مآل معرفي لما تمخض عن التفاعل المعرفي بين مختلف العلوم الإنسانية . و يمكن أن نقول إن التداولية : " حقل معرفي يهتم بالحركة الدلالية التي تحدثها الخطابات و هي تحول اللغة إلى أعمال قولية ، بحسب حاجة التواصل بين الأفراد و المجموعات في مختلف قطاعات النشاط البشري . و هي العقل المعرفي الذي تنتظر من خلاله علوم اللسان عامة ، و التواصل و الخطاب خاصة إلى اللغة بما هي نشاط إنساني فعلي في المجتمع . كما أنها تهتم بدراسة الظاهرة اللغوية في جريانها في الاستعمال " (١).

إن التداولية وفق التعريف السابق ، تقوم على دراسة للغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق التخاطب، و مراعاة كل ما يحيط بعملية التخاطب ، للوصول إلى المعنى ، و إحداث الأثر المناسب ، بحسب قصد صاحبه. كما تبحث في الشروط اللازمة لضمان نجاعة الخطاب وملاءمته للموقف التواصلية الذي يوجد فيه المتلفظ بالخطاب والسامع له (٢).

٢ - مفاهيم أولية : الخطاب - التواصل

(١) نفسه ، ص ٣١ ، ص ٣٢.

(٢) راجع ، باديس لهويل ، التداولية و البلاغة العربية ، مجلة المخبر أبحاث في اللغة و الأدب الجزائري ، جامعة محمد خيضر ، بكرة الجزائر ، العدد السابع ٢٠١١ ص ١٥٥ بتصرف .

شكل الخطاب محوراً مهماً في الدراسات التداولية ، و حظي باهتمام كثير من الباحثين مما جعله يتسم بالتنوع المفهومي و الاصطلاحي (١). و في درس اللساني الغربي صار محط اهتمام و اجتهاد كثير من الدارسين ، واستبدلوا الكلام - لدى دي سوسير - بالخطاب ، النص ، الرسالة . وقد ارتبطت دراسة آلية التخاطب (التلطف) باسم إميل بنيفست ، فعرفه بأنه " ملفوظ ينظر إليه من وجهة آليات اشتغاله في التواصل ، فهو كل تلفظ يتطلب متكلم و متلق للرسالة اللغوية ، و يفترض عند المتكلم (المرسل) قصد التأثير على المتلقي بكيفية ما (٢)". فالخطاب عند بنيفست ، تلفظ يفترض مخاطب ، و مخاطب للأول نية التأثير في الآخر . و هو بذلك اعتبر الخطاب ككلية عضوية متسقة و منسجمة ، بل اعتبره جملة نصية كبرى ، يمكن التعامل معها ، كالتعامل مع الجملة اللسانية . و سواء كان الخطاب مكتوباً أم شفويّاً فهو - في نظر ليتش و شورت - " وحدة تواصلية لسانية ، يفترض وجود متكلم و مستمع لحظة إنتاجه ، أي أنه فاعلية تواصلية هدفها تحقيق غاية اجتماعية (٣) " .

فالخطاب - في نظر التداوليين - وحدة لسانية تواصلية ، تستلزم طرفين للتواصل ، الأول ينتسب إلى مصدر المخاطب (المتكلم) و يمتد إلى مخاطب (متلق) مستهلك ، دون أن تتوقف ماهيته عند أحدهما ، ولا بد لإنتاجه من توفر الظروف الداخلية و الخارجية المتعلقة

(١) مفهوم الخاطب لدى العرب قديماً : هو ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير بإفهامه قصداً معيناً . أما مفهومه في درس اللغوي الحديث ، فهو - الخطاب - الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة . راجع عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوي تداولية ص ٣٦ .

(٢) لينده قياس ، لسانيات النص ، النظرية و التطبيق مقامات الهمداني أنموذجاً - تقديم عبد الوهاب شعلان ، مكتبة الآداب ، ٢٠٠٨ ص ٤١ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٩ .

بكل خطاب . فهو يشمل كل إنتاج لغوي يرتبط فيه ربط تبعية بين بنيته الداخلية (الصوتية و التركيبية و الدالية) و ظروفه المقامية . و من هنا يكون الخطاب أشمل من النص ، و ذلك لارتباطه بالمقام و السياق .

ويرتبط بمصطلح خطاب ، تلفظ ، ملفوظ فميدان استعمال اللغة هو الخطاب ،"ولا تبلور الاستعمال إلا من خلال عملية قولية تسمى عملية التلفظ بالخطاب ، فالتلفظ هو النشاط الرئيس الذي يمنح استعمال اللغة طابعها التداولي (١)" . فالتلفظ هو عملية إنتاج الخطاب في ظروف سياقية محددة ، أما مصطلح (الملفوظ) فيطلق للدلالة على نتاج فعل التلفظ . ويعرف بأنه " تتابع من الجمل المحققة ، أي كل ما يتلفظ به الإنسان منطوقاً أو مكتوباً ، يتعدد ضمن أبنية من التلفظ عن طريق ضمائر الشخص و ضمائر الملكية ، الصفات و الظروف و المبهمات الزمانية والمكانية (٢)" . فللملفوظ بُعد لساني ، و آخر غير لساني ، يظهر عبر أي سياق التلفظ .

فالتلفظ مصطلح تداولي يهتم بشكل الملفوظ (عملية إنتاج التلفظ) ، الذي يجسد الاستعمال اللغوي للخطاب ، و الاستعمال اللغوي هو عملية تلفظية بالخطاب ، فالخطاب يعد الميدان الأمثل لاستعمال اللغة وتداولها .

ويقسم التداوليون الخطاب إلى نوعين كبيرين ؛ خطاب مباشر ، و آخر غير مباشر (٣) .

(١) عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ص ٢٩ .

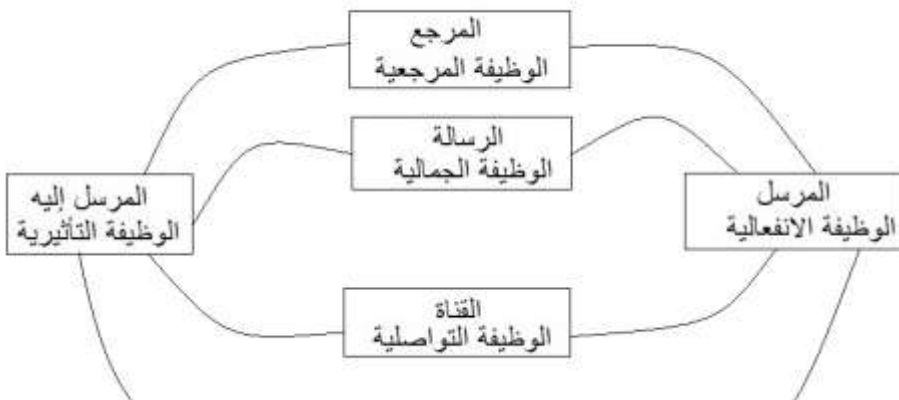
(٢) ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع ص ١٥ .

(٣) صلاح فضل ، بلاغة الخطاب و علم النص ، سلسلة علم المعرفة ، الكويت ، صفر ١٤١٣ هـ / أغسطس ١٩٩٢ م ص ٩١ .

- الخطاب المباشر : و يراد به مجرد توصيف المتكلم المذكور بدون التعبير عن أي حكم ، قيمة ، صريح عنه أو كلماته^(١) .
- الخطاب غير المباشر : و هو يتولد عن امتصاص خطاب الآخر (المخاطب) و أدائه بطريقة غير حرفية ، مما يتطلب تحويل أزمته الفعلية ، و تعديل ضمائره و إشارات كي تتسق في اتجاهاتها وإحالاتها^(٢) .

و يساعدنا هذا كله على التعامل مع النص الأدبي باعتباره خطاباً يحمل في طياته وظائف و مقاصد سياقية ، فكل ما يوجد في النص يحيل على أدوار تداولية و مقاصد مباشرة و غير مباشرة . فالدلالة ترتبط بالمعاني السياقية و الرسائل الظاهرة والمضمرة . تزخر لغة النص الأدبي بمجموعة من الدلالات السياقية و التداولية و الحجاجية إقناعاً و تأثيراً . سواء كانت نصية داخلية أم مقامية خارجية .

و ترى المقاربة التداولية أن للنص دوراً وظيفياً تواصلياً . و خير من يمثل التيار التواصلي الذي يرى النص الأدبي إبلاغاً و تواصلاً "رومان جاكبسون" الذي حدد ستة عناصر في عملية التواصل : المرسل و وظيفته انفعالية ، المرسل إليه و وظيفته تأثيرية ، و الرسالة و وظيفتها جمالية ، و المرجع و وظيفته مرجعية ، و القناة و وظيفتها حفاظية و تواصلية ، و اللغة و وظيفتها وصفية تأويلية و تفسيرية . و المخطط التالي يوضح هذا التقسيم :



وتأسس على النظرية التواصلية النظرية التخاطبية ، التي ترى أن النص تخاطب و تداول يجمع بين أطراف ثلاثة ، هي : المرسل و المرسل إليه و الثالث : الخطاب التداولي أو الرسالة المرسلّة . ويعني هذا أن الناقد التداولي ، يمكن أن يتعامل مع النص الأدبي أو الخطاب الإبداعي باعتباره بنية تخاطبية و تبادلية بين طرفين ضمن سياق عام ، أو سياق موقفي أو سياق نصي ، مع تحديد نوع التخاطب و التبادل التداولي .

٣ - التداولية و الحقول المعرفية

تتعدد الخلفيات الفكرية و الثقافية التي تغذي التداولية ، باعتبار أنها ظاهرة خطابية و تواصلية و اجتماعية معاً . فالتداولية تسعى لدراسة المنجز اللغوي في إطار التواصل و ليس بمعزل عنه ، و معرفة مدى تأثير السياقات الاجتماعية و نظام الخطاب . فهي في إطار عنايتها بدراسة اللغة أثناء الاستعمال تهتم بعناصر التخاطب و التحاور فتراعي قصد المتكلم و نواياه ، و حال السامع و ظروفه ، و تبحث في شروط نجاعة الرسالة ، و سلامة الحوار بين المتخاطبين ، و كل ما يحيط بهم . هي - إذن - تعنى بكل ما يتصل بالعمل التخاطبي ؛ بحثاً عن المعنى ، و ضماناً للتواصل .

و للوصول إلى هذا المزيج المعرفي ، متحت التداولية من حقول معرفية متنوعة ، لكن لا سبيل للإحاطة بها ، بقدر ما يشير إلى تنوعها في حقل المنجز التداولي . و سنبدأ بأهمها ، و هو اللسانيات العامة .

إن الوظيفة التي تضطلع بها التداولية تتخذ حقلاً معرفياً نوعياً خاصاً بها ، يفتح على كل العلوم النظرية التي ترتبط باللغة العادية ؛ بغية تحرير الملفوظ من صيغته اللغوية الحرفية إلى فضاء آخر ، يعقد من

خلاله علاقة وثيقة بالواقع الفعلي . فتساعد اللسانيات التداولية على الولوج إلى حقل التحليل الخطابى ، و إذا كان هم التداولية هو الملفوظ ، فإن التركيب اللغوي للجملة يعد من المراحل الأساسية التي يجب على التداولي المرور عبرها . فبداية تشكيل الكلام يكون من الجملة ، ثم يتبلور إلى أن يتخذ سياقاً جديداً يتمثل في الخطاب ، الذي يستطيع المتكلم أن يخزن فيه ما يريد إيصاله إلى المتلقي . و من ثم ظهرت التداولية اللسانية ، و هي اتجاه جديد في دراسة اللغة يبحث عن حل لمشكلات لغوية عديدة أهملتها اللسانيات .

كما تشكل اللسانيات التداولية محاولة للإجابة عن " جملة من الأسئلة ، تفرض نفسها على الباحث و البحث العلمي بعامه ، و عجزت اللسانيات عن الإجابة عنها ، متوسلة في سبيل ذلك عديداً من العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، و هي أسئلة من قبيل : ماذا نصنع حين نتكلم ؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم ؟ من يتكلم و مع من يتكلم ؟ من يتكلم و لأجل من ؟ ماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى ؟ هل يمكن أن نركز إلى المعنى الحرفي لقصد ما ؟ ما هي استعمالات اللغة ؟ " (١).

ولقد جاءت الأفكار التداولية من المذاهب و من الروافد الفلسفية (٢) والمنطقية و الإدراكية من أهمها ، رافد المدرسة الفلسفية التحليلية " (٣) فالفلسفة بمكوناتها ، و التي تعتبر الإنسان و الكلام طرفان متلازمان من حيث الوجود ، اعتباراً من تمييز الإنسان ، و يقع ضمن تملكه

(١) راجع : فرانسواز أرمينيكو : المقاربة التداولية ص ١١ ، و عبد القادر بن ظافر الشهيري : استراتيجيات الخطاب ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) وفتت الفلسفة و ظلت واقفة على أنها الممثل الشرعي الوحيد لكل المنطلقات الفكرية للمفاهيم النقدية المعتمدة على التحليل ولاسيما التداولية .

(٣) هذا الفرع من فروع الفلسفة هو المنوط بتناول مسائل التحليل اللغوي .

ظاهرة الكلام دون غيره ؛ لأن منطلق الإشكالية من المقصد الذي تحققه اللغة التي تنتظم الكلام في وجود الكلام متراهن مع وجود الإنسان ، و أن سد الحاجات متعدد خارج حدود اللغة " (١) .

فاللغة هي الرابط بين التداولية و الفلسفة التحليلية (٢)، باعتبار أن الأخيرة " تحاول أن تخضع اللغة ذاتها لجملة من التساؤلات التي لها علاقة بطبيعتها ، و كذا علاقاتها بما ليس له علاقة باللغة ، أي المظاهر غير اللسانية التي تكمن على سبيل المثال في : الواقع و الحقيقة والفكر ... " (٣) .

ويدخل علم النفس المعرفي ضمن منظومة معرفية تتكئ عليها التداولية (٤)، بل يمثل منهالاً عذباً تنهل منه التداولية ؛ نظراً للآليات المستخدمة من طرف هذا العلم في تفنيد الحوارات التي تدور بين بني الإنسان في المواقف الكلامية .

إن " علم النفس يمنح للبيئة التي تمثل المساحة الفعلية للسلوك الإنساني تقسيمين اثنين ، و هما على التوالي : بيئة فيزيقية اجتماعية و هي البيئة الواقعية المنقولة لنا ، أما البيئة الثانية فيشترك فيها الناس كلهم و هي ذات نمط سيكولوجي ، أي التي تتفاعل مظاهرها داخل النفس الإنسانية

(١) عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني عند العرب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ط١ ، ١٩٨١ ص٥٠ .

(٢) سيأتي الحديث في المبحث الثاني عن الآليات التطبيقية التي يلجأ إليها الدارس التداولي من خلال تحليله للكلام التخاطبي و اعتماده على سلسلة من المبادئ أو المفاهيم التي تعتمدها التداولية تبرز النقطة التي تلتقي فيها التداولية بالفلسفة التحليلية .

(٣) روبرت مارتان ، مدخل إلى فهم اللسانيات ، ترجمة عبد القادر المهيري ، مركز دراسات الوحدة العربية ط١ ، ٢٠٠٧ ص١١٤ .

(٤) سيأتي الحديث في المبحث الثاني عن المفاهيم التي تتعالق بدورها بين التداولية و علم النفس المعرفي .

. وهي كذلك البيئة كما يدركها الإنسان ، و كما تبدو له فيبيدي هو بدوره استجابة تجاهها، وبالتالي تثير هذه البيئة انتباهنا و نشاطنا (١) ، أو بالتعبير التداولية الظروف المكونة للسياق . و هنا يلتقي علم النفس المعرفي بالتداولية على أساس أن الأول يهتم : " بشرح كيفية التشغيل الواقعي لهذا النظام اللغوي المجرد " (٢).

و يمكن أن نلخص هذا التعالق بين التداولية و علم النفس المعرفي في الآتي :

- اهتمام التداولية بما يصدر من الإنسان من أقوال ، أو الملفوظات ، و التي هي منطلق التحليل التداولي ، و كذلك علم النفس المعرفي يسلط الضوء على الأقوال المنتمية إلى اللغة العادية على اعتبار : " أننا لن نتمكن أبداً من الانفصال عن ما نقوله ، و مع ذلك فإننا نرسم هدفاً يرمي إلى التوصل إلى حقائق بالحديث عن الإنسان و هو يتحدث " (٣).

= ترتكز الدراسات التداولية على الجانب الاستعمالي من اللغة . و هذا الجانب يعمل على تفعيل الحيوية في عدد من الآليات النفسية التي وهبها الله سبحانه و تعالى للإنسان ، و أهمها الآلية العقلية التي تتحكم في المبادرات الكلامية التي تصدر عن الإنسان على شكل حوارات متعددة المقاصد ، و تتعدد على حسب سياقاتها ، و بالتالي تأتي أهمية علم النفس المعرفي الذي يركز اهتمامه كذلك على العناصر التي تغذي

(١) أحمد عزت راجح ، أصول علم النفس ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ، القاهرة ط ٧ ، ١٩٦٨ ، ص ١٥ .

(٢) صلاح فضل ، بلاغة الخطاب و علم النص ، ط عالم المعرفة ، المجلس الوطني للفنون و الآداب و العلوم ، الكويت ، ع ١٦٤ ، ١٩٩٢ ص ٢٣١ .

(٣) جان بيلمان نويل ، التحليل النفسي و الأدب ، ترجمة حسن المودن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ١٠ .

العملية الحوارية لأنه: " العلم الذي يهتم بدراسة بنية العمليات العقلية وأنشطة التفكير " (١).

- تحاول التداولية الدخول إلى المناطق المجردة من الإنسان ، والمقصود بها العمليات التي تحدث آلياً أو بشكل غير آلي داخل النفس الإنسانية قبل أن تترجم إلى أقوال عادية أو إلى أقوال أفعال ، أو بالتعبير التداولي " أفعال كلامية " و بالتالي فعلم النفس المعرفي " يعني بجميع العمليات التي يمارسها الفرد عندما يستقبل المعلومات و يعالجها و يرمزها و يخزنها ثم يسترجعها عند الحاجة " (٢).

و يمثل الإدراك (٣) موضوعاً من الموضوعات التي تدخل في باب التحليل اللغوي ، فهو وسيلة مهمة في تصنيف النظرة الإنسانية إلى الأشياء ، و التي ينتج عنها اختيار أحسن السبل الحوارية في التبليغ ، و تتبع السياق الذي سيدور في دائرته الحوار الكلامي بين الطرفين المؤسسين للحوار : المرسل و المرسل إليه . و لا يتعد " الذكاء " (٤) عن الحضور في التداولية كأحد مفاهيم علم النفس المعرفي ، و الذي يفيد في محاولة ترجمة الألفاظ المسموعة من طرف المرسل إليه إلى

(١) راجع النصير الزغلول ، و عماد عبد الرحيم الزغلول ، علم النفس المعرفي ، دار

الشروق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ص ١٧ .

(٢) راجع السابق ص ١٧ ، و يحسن أن نشير إلى بعض موضوعات علم النفس المعرفي مثل : الإدراك ، علوم الدماغ ، التعرف على النمط ، الانتباه ، الذاكرة ، تمثيل المعرفة ، التخيل أو التصور الذهني ، اللغة ، النمو المعرفي ، و حل المشكلات ، الذكاء الإنساني ، الذكاء الاصطناعي ، راجع ص ١٨ : ٢٠ .

(٣) يعني بكيفية تفسير الإشارات الحسية ، و يتطلب لدى الفرد أن يكون له كفاية حسية كي تمكنه من استقبال الإشارات من البيئة المحيطة به ، علماً أن هذه الإشارات تتغير بتغير المشهد و تتباين بالأهمية و الموقع ، راجع السابق ص ٢٢ .

(٤) هو قدرة الفرد على التفكير المجرد و التعلم و الاستفادة من الخبرة ... و تدل على الذكاء مؤشرات سلوكية كثيرة منها : القدرة على فهم اللغة و اتباع التعليمات و تحويل الوصف اللفظي إلى نشاط سلوكي ، راجع السابق نفس الصفحة .

سلوك فعلي يتم مشاهدته على ساحة الحوار الواقعي . و هو ما يؤكد مصطلح الذكاء الكلامي الذي يروم من ورائه الفرد ، اكتساب القدرة على جعل كلامه ذا طبيعة تأثيرية في الآخرين . و يعتبر هذا الأمر من الأهداف التي تدخل في دائرة نظرية الأفعال الكلامية في التداولية .

إن التداولية نهج لغوي يعمل على تتبع المعنى كي تجد له تفسيرات أو تأويلات قريبة من الحقيقة . فالتداولية تتابع التعبير اللغوي من لحظة تشكُّله من اللغة ، و تحوله إلى كلام فردي . و هذا ما جعل منها ملتقى الدراسات المختلفة الأدبية و اللسانية و الفلسفية و النفسية ...

٤ - التداولية في الفكر النقدي القديم

لا يبرز شيء من فراغ ، إذ لا بد من بدايات تسبق مرحلة الظهور، و هذا يشمل جملة الظواهر الطبيعية التي تتعلق بالإنسان و اللغة من شؤون الإنسان غير المحسوس ؛ أي المجرد . و من ثم كان اهتمام الإنسان العربي بلغته منذ عهدٍ قديم ، التي شكلت كينونته و عبرت عن دواخل نفسه . ثم جاءت الجهود العلمية التي قدمها اللغويون العرب القدامى في : النحو ، الصرف ، و البلاغة إلى غيرها من الحقول المعرفية زاداً معرفياً أغنى اللغة و زادها ثراءً . و رافقهم الأصوليون و الفقهاء الذين أدركوا قيمة الاعتبارات اللغوية كمدخل لفهم النصوص الشرعية . فانتحوا منحى دراسياً يتجه إلى المعنى و الغرض " فعالجوا أساليب النصوص الدينية و معانيها علاجاً تداولياً ، مستثمريين بعض

الظواهر و المفاهيم التي لم تتمكن اللسانيات التداولية و فلسفة اللغة من بلورتها إلا حديثاً^(١).

يشكل مفهوم " الأفعال الكلامية" مضغة الاهتمام الأولى للتداوليين . و إذا نظرنا في التراث العربي سنجدها قد جاءت ضمن نظرية : الخبر والإنشاء . فدرس علماء اللغة ضمن هذه النظرية ظاهرة الأفعال الكلامية ، و استنبطوا أفعالاً كلامية جديدة من الأساليب الخبرية^(٢).

كما استنبطوا أفعالاً كلامية أخرى من الأساليب الإنشائية^(٣) . كما درسوا أسلوب الاستفهام و معانيه دراسة عميقة ، و استنبطوا منه فروعاً مهمة من الأفعال الكلامية^(٤). و تمثل البلاغة العربية نموذجاً للتفاعلات التداولية ، و إذا أراد الباحث انتقاء مثال منها ، فسيجد الجاحظ خير من يمثل هذا النموذج . و تتجلى جذور التداولية عند الجاحظ من خلال تقسيمه للبيان ، ملتفتاً إلى وظيفته ، بل الاهتمام الأكبر كان بالوظيفة التأثيرية و التي تمثل جانباً مهماً في التداولية ، يقول الجاحظ : " أما بعد، يمكن إرجاع وظائف البيان اعتماداً على كل ما سبق ، إلى ثلاث وظائف أساسية هي :

١ - الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية (حالة حياء ، إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام) .

(١) مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، ط دار الطليعة بيروت الطبعة الأولى ، تموز (يوليو) ٢٠٠٥ ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) من أهمها : الرواية و الشهادة ، و الوعد و الوعيد ، و الدعوى و الإقرار ، و الكذب و الحلف .

(٣) من أهمها : الإنز و المنع ، و الندب ، و الإباحة و التخيير ، و التعجيب و ألفاظ العقود و المعاهدات و الإيقاعات .

(٤) منها على الخصوص : التقرير ، الإنكار الإبطالي ، الإنكار الحقيقي .

٢- الوظيفة التأثيرية : (حالة الاختلاف) تقديم الأمر على وجه الاستمالة و جلب القلوب .

٣- الوظيفة الحجاجية : (حالة الخصام) إظهار الأمر على وجه الاجتماع و الاضطرار " (١).

و لقد شارك الجاحظ من النقاد القدامى في التوجه التداولي ابن قتيبة الدينوري في مقدمة كتابه " أدب الكتاب " و ذلك ف مقولتي الإيجاز والإطناب ؛ يقول : (ليس يجوز لمن قام مقاماً في تحضيض على حرب أو صلح بين العشائر أن يقلل الكلام و يختصره ، و لا لمن كتب إلى عامة كتاباً في فتح أو استصلاح أن يوجز ، و لو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة و التحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغة تلكؤه في بيعته " أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً و تأخر أخرى . فاعتمد أيهما شئت و السلام . لم يعمل هذا الكلام في أنفسها عمله في نفس مروان ، و لكن الصواب أن يطيل و يكرر ، و

ويبدأ " (٢). يعد هذا الحديث " تصور نظري لأجناس الخطاب التواصلية ، ذي القيمة التأثيرية التي ينتجها المقام الخطابي و الرسائل في نظرية الأدب عند الغرب . و قد تظن فيها ابن قتيبة إلى منانة الصلة بين الفرض القولي (المقصد) و العمل القولي المناسب له " (٣).

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان و التبیین ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الجاحظ ، مصر ط٤ الكتاب الثاني ، ١٣٩٥ - ١٩٧٥ ، ط١ ، ص ٧٥.

(٢) ابن قتيبة الدينوري ، أدب الكاتب ، المقدمة .

(٣) صالح بن الهادي رمضان ، التواصل الأدبي ، ص ٢٤.

ترسخ هذه المقدمة رؤية تداولية تؤصل و تبحث عن دور " المقام " في بلورة الأسس الملائمة لتلقي الخطاب الأدبي ، و تعد من اللبنة الأولى في التنظير للفكر اللساني القديم لتداولية الأجناس الأدبية خاصة والتواصلية بعامة .

و تمثل نظرية "المقام " مقولة مهمة في تحليل الخطاب التداولي . فهي تقوم على مفهوم مراتب التخاطب ؛ أي أنواع المتكلمين في علاقاتهم بأنواع المخاطبين . و ما يتطلبه من مظاهر الانسجام الأسلوبي الذي يراعيه المتكلم حين ينظم جملة و أعماله القولية ، و يوجه دلالاتها بحسب صورة المخاطب ، و بمقتضى طاقة تقبله ، و بحكم موقفه الاجتماعي و الثقافي و النفسي زمن التخاطب ، و بحكم جنسه و عدده و معتقده و غاياته ، و تصوره للمتكلم ، و ما يمتلكه من وعي فردي أو جمعي .

إن البلاغة العربية في دراستها للخطاب المتنوعة ؛ دينية أو أدبية (شعر و خطابة) " اهتمت بتقديم توصيف لعناصر العملية التواصلية (متكلم و سامع و رسالة و مقام و مرجع و حتى القناة التواصلية) ، و في إطار هذا التوصيف عنيت بمقاصد الخطاب و أحوال المتلقين له ، و شروط الخطاب الناجع الذي يحقق الفائدة لدى المتلقي ، المؤشرات اللغوية و غير اللغوية المتحركة في ذلك " (١) ، مما أكسب البلاغة العربية أبعادا لسانية و تداولية مهمة ، تضمن لها التواصل المعرفي مع معطيات الدرس الحديث والمعاصر .

(١) باديس لهوبيل ، التداولية والبلاغة العربية ، مجلة المخبر ، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة الجزائر ، العدد السابع ٢٠١١ ، ص ١٧٢ .

استنتاجات

يستطيع الباحث أن يلخص أهم النقاط التي وردت في هذا المبحث كالتالي :

١- اختص المبحث السابق بالعرض النظري - التاريخي للخطابة تمهيداً للتناول النظري للتداولية الحديثة فأوضح أن الخطاب فن يعتمد على الموهبة ، تردفها الخبرة و الممارسة في نسخ الكلام و إلقائه في شكل جمالي للتأثير في نفوس المتلقين و استمالتهم و إقناعهم بفكرة معينة .

٢- للخطابة حضور قوي في الثقافتين : العربية والغربية ، و أدت دوراً حيويّاً في مفاصل الحضارة العربية على اختلاف فنونها و فروعها .

٣- اتسمت الخطابة بطبيعة بنائية خاصة ، يحتضنها محيط اجتماعي ، تمثل التفاعل بين الخطيب و جهوده عبر قناة اتصال.

٤- تتكئ الخطابة على ركيزتين رئيسيتين : الإقناع و التخيل ، وسيلتها الاستمالة الوجدانية حتى تصل إلى عقل المخاطب لإقناعه بما يريد المتكلم / الخطيب .

٥- لأهمية الخطابة قديماً تناولها أرسطو بالدرس و التمهيص فعرّفها تعريفاً خاضعاً لمقولة الشرط الكافي الضروري مما يدل على أنها صناعة كلامية تتكلف الإقناع و الاستمالة.

٦- لم يخل الدرس العربي القديم من تناول النقدي للخطابة نظراً لإسهاماتها المختلفة في الحياة العربية القديمة بدءاً من العصر الجاهلي ، و وقفت الدرس البلاغي و اللغوي و الأصولي على بعض المقومات المنهجية التي تقف جنباً إلى جنب مع الدرس التداولي المعاصر .

- ٧- تعد التداولية من أبرز و أصعب المفاهيم النقدية الحديثة التي تعسر على العلماء و النقاد الإلمام بتعريف دقيق لها ، نظراً لتجدد روافدها المعرفية المتنوعة .
- ٨- تتطرق التداولية إلى اللغة كظاهرة خطابية و تواصلية و اجتماعية معاً ، شاهدة بذلك على مقدرتها الخطابية .
- ٩- اهتم التداوليون بمفاهيم لسانية من أهمها الخطاب و التواصل ، فالأول في نظرهم يعد وحدة لسانية تواصلية ، تستلزم طرفين للتواصل (المتكلم - المخاطب) كما تعتبر أن للتواصل دوراً وظيفياً تأسس على النظرية التواصلية .
- ١٠- لم يغض علماء العربية القدامى الطرف عن بعض المفاهيم التداولية فكانت لظروف عصرهم و معطياتهم الحضارية دور في دراسة بعض المفاهيم التي تدخل في التداولية من أوسع أبوابها .

المبحث الثاني

الآليات التداولية في تلقي النص الخطابي

مقدمة

أولاً : تداولية المتكلم - المخاطب

١ - القصدية

١-١ أنواع القصد ١-١-١ التقسيم الأول : القصد الإخباري و

القصد التواصلية

١-١-١-١ القصد الإخباري ١-١-١-٢ القصد التواصلية

١-١-٢ التقسيم الثاني : القصد البسيط و القصد المركب

١-١-٣ التقسيم الثالث : القصد الآني و القصد المستقبلي

٢-١ القصد و القيمة

٣-١ المعرفة التداولية و القصد

٢- متضمنات القول

١-٢ الافتراض المسبق ٢-٢ القول المضمر

٣- الاستلزام الحوارية

١-٣ مفهوم الاستلزام ٢-٣ أنواع الاستلزام

١-٢-٣ الاستلزام النموذجي/العرفي ٢-٢-٣ الاستلزام الحوارية

١-٢-٢-٣ مبادئ الاستلزام الحوارية ٢-٢-٣ خصائص

الاستلزام الحوارية

ثانياً : تداولية الخطاب

١ - الخطاب و السياق

٢ - الخطاب في ذاته

١-٢ نظرية التلفُّظ ١-١-٢ مفهوم التلفُّظ

٢-١-٢ أوضاع التلْفُظ ١-٢-١-٢ أوضاع المتلْفُظ : المتكلم و

التلْفُظ

٢-٢-١-٢ أوضاع المتلْفُظ : المخاطب والتلْفُظ .

٢-١-٢ مرجعيات التلْفُظ

٢-٢ نظرية الفعل الكلامي

١-٢-٢ ماهية الفعل الكلامي

٢-٢-٢ تصنيف نظرية الفعل الكلامي

١-٢-٢-٢ "أوستين" و الفعل الكلامي

٢-٢-٢-٢ "سيرل" و الفعل الكلامي

٣-٢-٢ "الخبر و الإتياء" و نظرية الفعل الكلامي

٣-٢ النظرية الحجاجية

١-٣-٢ مفهوم الخطاب الحجاجي

٢-٣-٢ مرتكزات النظرية الحجاجية

١-٢-٣-٢ الوسائل اللسانية

١-٢-٣-٢ الوسائل اللسانية

٢-٢-٣-٢ السلام الحجاجية

٣-٢-٣-٢ الروابط و الفواصل الحجاجية

استنتاجات

مقدمة

تعد الخطابة صناعة قولية تقوم على حمل المتلقي / السامع على الافتتاح بمقدمات محتملة الصحة في جميع الموضوعات . و من هذه الزاوية تعد الخطابة - في جميع أجناسها - من أهم المجالات الأدبية التواصلية . فهي التي تكشف عن أسرار التفاعل بين الخطيب و جمهوره ، و معايير إنجاز الوظائف الأدبية في الخطابة . و لذا ، فإنه من الممكن أن تدخل الخطابة ضمن إطار العمل الاجتماعي الذي يتسع ليشمل أشكال التفاعل الاجتماعي كافة ، و ضروب سياسة القول في مناحي الحياة عامة . و إذا كانت الخطابة قد دخلت مجال الأدب ، فلأنها مثلت في عصور الفصاحة العربية ، النماذج التعبيرية المثالية ، و أسست لدراسات تطمح إلى تحقيق جمال القول بشكل مطلق . لكن الخطابة لا تقف عند هذا المنطلق المبدئي ، بل يجب أن تراعي تاريخ التلقي و ظروفه ، و المؤثرات النفسية و الاجتماعية لأحوال السامعين ، و تؤسس لفعل يراعي التفاعل التخاطبي في كل مقام من مقامات القول .

فلم تكن الخطابة تاريخياً و نظرياً بعيدة عن مراعاة الجانب التداولي . فقد أسهمت منذ نشأتها الجاهلية في تنظيم الحياة العامة ، و كذلك أسهمت على المستوى النظري في بروز الاتجاه التداولي في الفكر النقدي القديم (و خاصة مع الجاحظ و الجرجاني) . و أثبت هذا الاتجاه ، أن قراءة النص الخطابي قد جمعت النقد الداخلي أو البنائي و النقد السياقي القائم على الأسس التداولية . و أن قراءة النص الخطابي تخضع لسياق ثقافي محدد ، و لأفق الانتظار ، و لردود الفعل التي

تكونت للقارئ عبر الزمن ، و بمقتضى ما تكون لديه من آراء حول ذلك الجنس الأدبي .

والاتجاه التداولي يعرف بأنه ؛ استعمال اللغة في الخطاب ، مشاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية . فهي تعنى بدراسة الاستخدام اللغوي و الضوابط التي تحكمه ، و دور السياق أو المقام غير اللغوي في التواصل الإنساني . فقد أولت التداولية اهتماماً كبيراً بعناصر الرسالة ، فاهتمت بعنصري : المتكلم و المخاطب ، فاعتبرتاهما ركنين أساسيين ، ومظهرين مهمين في الحالة الكلامية . فالخطاب موجه من و إلى أحد الطرفين في سياق محدد ، ولا يمكن فهم الخطاب دون استحضار صاحبه والموجه إليه .

فالتداولية نهتم بكل من المتكلم و السامع و العلاقة بينهما ، و ما يرافق الكلام من تعبيرات غير لغوية ، و من يشاركون في الاتصال اللغوي و بنية الحدث الزمانية و المكانية . كما تهتم بقدرة السامع على الكشف عن مقاصد المتكلم و استجابته لها ، و ما يستلزمه التواصل من معانٍ مقامية ، لا تستطيع المناهج الشكلية الكشف عنها أو تحليلها .

و ليس معنى هذا ، الابتعاد الكامل عن دراسة النظام ، فليس من الممكن دراسة الاستخدام اللغوي دون معرفة بالنظام الداخلي للنص (التي تراعيه المناهج الشكلية) ، لكن الانطلاق التحليلي من الاستخدام لا النظام .

و أياً ما كانت صلاحية التطبيق التداولي على المنظومات الأدبية ، فإن الأخيرة لا تستجيب جميعها لمقاربة تداولية واحدة ، بل إن كل لون من الألوان يتفاعل بشكل أكثر ثراءً مع إحدى المقاربات . و بالتالي فإن تداولية الجنس الأدبي هي الوظيفة الوسائطية التي يضطلع بها الأثر

الأدبي المنتمي إلى منظومة من الأعراف و العادات القولية و التقاليد الجمالية النسبية .

والنص الخطابي ، نص تواصلية مرتبط بشكل من الأشكال بموقف اجتماعي . لذا ، تقف التداولية على إظهار بُعد الوظيفي أو الأيديولوجي . و هذا الأخير يحيل الناقد إلى فكرة السياق ، ودوره في فهم دلالة النص ، و هو مصطلح يعتمد كإجراء أساسي في تحقيق ما يرمي إليه النص من مقاصد ، (و ما دام السياق تجريباً لا يتضمن للموقف التواصلية ، فما هي تلك العناصر التي يتضمنها منه ؟ والإجابة عن هذا السؤال يسيرة من الموقف سوى تلك العناصر لأنه لا يتضمن من الموقف سوى تلك العناصر التي تحدد بشكل منظم :

أ- قبول النص أو رفضه .

ب- كفاءته أو عجزه .

ج- ملاءمته أو منافرتة ^(١) .

هذه العلاقة الوطيدة بين السياق و النص الخطابي ، هي نتيجة طبيعية ناتجة عن الموقف التواصلية الذي خاطب فيه المتكلم / الخطيب المتلقي / المستمع ؛ مريداً من خطبته تحقيق قصد معين . فليس النص الخطابي (مجرد خطاب لتبادل الأخبار و الأقوال و الأحاديث ، بل يهدف إلى تغيير وضع المتلقي عبر مجموعة من الأقوال و الأفعال الإنجازية ، و تغيير نظام معتقداته أو تغيير موقفه السلوكي) ^(٢) و هو ما يطلق عليه "مقتضى الحال" ، و أن لكل مقام مقال ، كما كان يطلق

(١) صلاح فضل ، بلاغة الخطاب و علم النص .

(٢) جميل حمداوي ، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة ، ط أفريقيا الشرق ٢٠١٤ ص

في البلاغة العربية . و إذا كانت قضية مطابقة مقتضى الحال هي ما يثبت إمكانية دراسة التعبير الخطابي / النصي بمراعاة الموقف أو المقام الذي قيل فيه الكلام ، فإننا سنجد أن العلاقات بين المعاني الحقيقية ، والمعاني التخيلية كذلك مرتبطة بشكل أو بآخر من الأخذ بسياق المقام ؛ لتأسيس المعنى الإيحائي القائم على التخييل و اكتساب الكلمات لدلالات جديدة ، و هذا ما يؤدي إلى إظهار العلاقة بينها و بين النص .

وبالإجمال ، فإن بالإمكان دراسة النص الخطابي من الوجهة التداولية " دراسة متكاملة المستويات ، فالكلمة قيمة تداولية تظهر في اختيار المعاجم التي ينتجها التداول في مجالات التواصل الأدبي . و ربما كان للكلمة قيمة تداولية في سياق تواصل آخر ، و ربما فقدت هذه القيمة في سياق آخر. و في تحليل مواد الحجاج ، باعتبار أن الجنس الأدبي هو أولاً مؤسسة جمالية تستجيب من الناحية التواصلية للثقافة الاجتماعية التي تنشأ فيها الموضوعات و الأغراض على اختلافها" (١). وسيقف البحث على الآليات التداولية التي تناسب النص الخطابي باعتباره نصاً تبدو عليه مظاهر التفاعل الاجتماعي ، و حضور المخاطب ، وأساليب الإقناع ، و الاستمالة ، و استراتيجية الأقوال وغيرها من المستويات التداولية الخطابية . بهدف استنباط جملة القواعد ، و الأساليب اللغوية ، والحجاجية ، والسياقية ، والتلفظية التي تحكم الاستدلالات ، والتوقعات الدلالية ، و من ثم إنتاج الدلالة .

وعليه ، فإن هذه النقاط التي سيعرضها البحث ، لا تركز على مظاهر اللغة الداخلية (الصرفية أو التركيبية ...) بصفة مطلقة ، بقدر

(١) صالح بن رمضان ، التواصل الأدبي ص ١٦٦ بتصرف .

ما تحاول المزج بين عناصر اللغة ، و عناصر السياق المرتبطة بالمتكلم / الخطيب ، و المخاطب / المستمع ، وكل الظروف المقامية التي كانت سبباً في إنجاح العملية التبليغية . و مع ذلك فلن يضيف البحث جديد إلى ما جاءت به بعض النظريات التداولية ، إنما سيعيد تنظيم بعض المفاهيم ، وتأويل مضامينها ؛ لتستجيب للغايات التي من أجلها وضعت ، وأبرزها فهم إجراءات التداولية ، وتفسيرها ؛ لتحليل النص الخطابي تحليلاً سليماً و مفضياً .

أولاً : تداولية المتكلم – المخاطب

للمتكلم دور بارز في الدرس التداولي ، بوصفه منتج الخطاب ، وباعته ؛ ولأنه وحده الذي يستطيع تحديد الدلالات ومقاصدها ، بل إن المعنى في كثير من الحالات مرتبط بما ينويه وما يقصده .

ومن هنا كان الاهتمام بالمتكلم بعدّه أساس فهم المعنى وقصد الدلالة . ولم يغفل الدرس العربي ^(١) عموماً ، والبلاغي بشكل خاص ، عن الاعتدال بمجموع العناصر التي تسهم في تشكيل الدلالة بما فيها المتكلم ، وما ينبغي أن يلم به من علم بأحوال الخطاب المختلفة ، ودراية بأقدار السامعين ومنازلهم ، بحيث يخاطب كل سامع بما يناسبه .

١ - القصديّة

تتعلق القصديّة بالمتكلم / الخطيب ، و بما يدور في خلدّه أثناء إصداره لمفوضاته . و يدل مفهوم القصد في المعالجات النظرية على : الإرادة ، أو على معنى الخطاب أو على هدف الخطاب. و كلها ترتبط بما من

(١) راجع ابن جني ، الخصائص ، ١١٧/١ ، القاضي عبد الجبار ، المغني ص ٧٢ ، ابن خلدون ، المقدمة ص ٥٦٥ ، حيث يقول : " اعلم أن اللغة في المتعارف عليه ، هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام " .

شأنه تحفيز المتكلم / الخطيب على تحريك العملية التبليغية . ويشمل ذلك ما صرح به من ملفوظات أو ما لم يصرح به ، أما بما يتعلق بالمستمع/ المتلقي و دوره في تأويل الملفوظات ، أو في التبليغ عموماً . ويحتل القصد مكاناً بارزاً في تأويل النص ، باعتباره صادراً عن متكلم قد

لا يصرح عن مقاصده إلا قليلاً ، و على الناقد التداولي ، في هذه الحال أن يبحث عن هذه المقاصد في كل جزئيات النص ، وكذلك في مختلف الظروف و السياقات التي أسهمت في صدوره . ويتوقف الحديث عن انسجام الخطاب بعد الركون إلى معرفة القصد الذي أصدر هذه الخطابات . فمعرفة الدلالة تعد من قبيل المحال إن لم ترجع - كما يقول سترابوسون إلى (ما يمكنه و ينويه المتكلمون من مقاصد معقدة موجهة نحو مستمعيهم ، فالدلالة الخاصة بالألفاظ و العبارات تتعلق من دون شك بالقواعد و التوافقات المتواضع عليها تعلقاً كبيراً ، غير أن الطبيعة العامة لمثل هذه القواعد والتوافقات ، لا يمكن أن تفهم آخر الأمر إلا بالرجوع إلى مصطلح قصدية التواصل)^(١) . ولعل هذا المفهوم، لم يكن غائباً عن الوعي اللغوي لدى المشتغلين بالمعنى في التراث العربي . فمثلاً " التهانوني " خبرنا بأن (أهل العربية يشترطون القصد في الدلالة ، فما يفهم من غير قصد من المتكلم لا يكون مدلولاً للفظ عندهم ، فإن الدلالة عندهم هي فهم المقصود لا فهم المعنى مطلقاً ، بخلاف المنطقيين ، فإنها عندهم فهم المعنى مطلقاً ، سواء أَراده المتكلم أم لا ، فظهر

(١) إدريس مقبول ، في تداوليات القصد ، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد ٢٨ (٥) ٢٠١٤ ص ١٢١٠ .

أن الدلالة تتوقف على الإرادة مطلقاً ، مطابقة كانت أو تضمناً أو التزاماً ^(١).

وهذا التنصيص على مفهوم "القصدية" في التداولية ، بما هي فعل ذاتي ترجع كل دلالة في الخطاب إلى الذات المتلطفة بها ، ويحتكم في الختام إليها ، هو القول المختار عند غالب الفقهاء ولذا صاغوا قاعدة : " مقاصد اللفظ على نية الالفاظ " ^(٢) ، وكذا في الدراسات اللغوية والبلاغية والفلسفية .

(١) التهانوني ، كشاف اصطلاحا الفنون تحقيق لطفي عبد البديع ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مصر ٢٩١/٢ .

(٢) الإمام الزركشي ، المنثور في القواعد الفقهية ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، الكويت ١٩٨٤ ص ٣/١٢٢ .

١-١ أنواع القصد

يميز أصحاب النظرية التداولية بين عدة تقسيمات للقصد :

١-١-١ التقسيم الأول : القصد الإخباري و القصد التواصلية

١-١-١-١ القصد الإخباري

أي المعرفة التي فهمها المخاطب من إرادة المتكلم . أو ما يقصد إليه المتكلم من حمل لمخاطبه على معرفة معينة . فكل خطاب يحمل مضموناً / خبراً ، يأتي ليبين عن موقف خاص من قضية محددة أراها المتكلم ، فيكون بذلك مفيداً لأمر قد يعرفه المخاطب تذكيراً أو تنبيهاً ، أو ربما يجهله فيكون تعريفاً له و تبصيراً . و هذا الذي ذكره أصحاب التداولية ، يطابق قصد الإفادة في اللغة العربية الذي قرره النحاة^(١) في الكلام ، و هو شرط الإفادة ، ولا اعتبار لفائدة تأتي من غير قصد . ويقول الجاحظ : (لا خير في كلام لا يدل على معنك ، ولا يشير إلى مغزائك ، و إلى العمود الذي إليه قصدت والغرض الذي إليه نزعت)^(٢).

١-١-١-٢ القصد التواصلية

أي ما يقصد إليه المتكلم / الخطيب من حمل لمخاطبه على معرفة قصده الإخباري و (لا يتوقف نجاح التواصل على التلقي الجيد للكلام فحسب ، بل عليه) أي على المتلقي (أن يدرك القصد التواصلية للمرسل و أن يتفاعل معه فعلياً و إدراكياً بشكل سليم)^(٣). ولا يبعد

(١) كابن هشام ، المغني اللبيب عن كتب الأعراب ، تحقيق مازن المبارك دار الفكر ٢٧٤/٢ .

(٢) الجاحظ ، البيان و التبين ، تحقيق عبد السلام هارون ، الخانجي ، ط٧ ، ١١٥/١ .

(٣) إدريس مقبول ، في تداوليات القصد ، ص١٢١٢ .

التراث العربي عن هذا المعنى ، و ذلك في مفهوم : الإفهام و التفاهم .
فقد جعل الجاحظ

(مدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، و الحمل عليهم على أقدار منازلهم)^(١)، و يقول : (مدار الأمر و الغاية التي إليها يجري القائل و السامع إنما هو الفهم و الإفهام ، فبأي شئ بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع)^(٢) . فمدار الفهم و الإفهام على الوجه الذي يصور الفعل التخاطبي القصدي في صورته الذاتية ، من خلال تفاعل الذات/الخطيب مع اللغة التي يستخدمها مع ما يتطلبه ذلك ، من الوقوف على شروطها الداخلية و الخارجية (الفهم) ، ثم انعكاسه أو تفاعل الذات مع اللغة ، قصد تحقيق هذا التفاعل عند الآخر و ذلك عن طريق (الإفهام) .

١-١-٢ التقسيم الثاني : القصد البسيط و القصد المركب

تتعدد ألوان القصد في الخطاب الواحد ، فاهتمت الأبحاث التداولية بالتعدد القصدي ، فليس هناك شئ بسيط تبعاً للتداولية ، بل هناك جماع أسباب تؤدي إلى حدوث هذه الظاهرة أو تلك ، لا نستطيع فهمها إلا في سياق كلي . و هكذا فالقصد التخاطبي ليس واحداً ، بل هو مركب و يتسم بالانعكاسية ، أي لا بد من اعتبار دور المتلقي / المخاطب في استيعابه للقصد أو بعده عنه . فقد يقصد المتكلم / الخطيب إلى إبلاغ محتوى دلالي إلى المخاطب " ثم يقصد أن يفهم المستمع هذا القصد المخصوص ، ثم يقصد أن يفهم المستمع منه هذا القصد الثاني ،

(١) الجاحظ البيان و التبيين ، ٩٢/١ .

(٢) السابق ، ٧٦/١ .

و يقدر يمضي إلى قصد فوقه ، و منه إلى ما فوقه ، و هكذا حتى حصول اليقين عنده بنهوض المستمع بالفهم المطلوب " (١).

١-١-٣ التقسيم الثالث : القصد الآني و القصد المستقبلي

تميز الدراسات التداولية بين نوعين من القصد بالنظر للزمان ، فالقصد يعبر عن فعل نفسي و مرتبط بالحديث في النص الأدبي بالحال أو الاستقبال . فهو لا يخرج من كونه متحقق في الحال أو الاستقبال وليس عن الماضي . و يشترط في القصد المستقبلي سبق العلم بالمقصود . أما القصد الآني فهو يقصد في لحظته و زمنه عند التلبس بالفعل .

١-٢ القصد و القيمة

تضمن الأبحاث التداولية القصد ، و تعدد بدوره في تقنين مسارات النقاش والحجاج و الخطابة ، و ذلك بشرط أن يكون المخاطب قد فهمه كما يعنيه المرسل / الخطيب ، فيجب عليه ألا يتكلم إلا على المقصود من خطابه ولا يفترض قصداً لم يرم إليه المرسل . و من هنا تتبين الوظيفة المحورية للقصد في أي عملية تأويلية و تحليلية للخطاب . و لا تتساوى القيمة و مراتبها في القصد ، فقد تضعف القيمة بضعف القصد ، والعكس ، فإنها تتقوى بقوة القصد الذي يستدل عليه بعدد من القرائن اللغوية الخارجية . فعلو القيمة ، أضعفها تبعاً لميزان القيم التي وضعها الناس أو تعارفوها في أخلاقهم و أعرافهم . و عليه ، فإن الدلالة التي مدارها على معرفة القصد باعتبارها انعكاساً نفسياً تتأثر بالرضا أو الغضب ، و غيرهما مما يعترى المتكلم/الخطيب من أحوال نفسية طبيعية. و كما أن الناس متفاوتون في إدراك اللغة ، فهم

(١) طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ط ١٩٩٨ ، ص ١٦١ .

متفاوتون في إدراك مقاصد الخطابات . وعليه ، قد نجد سوء الفهم و التفاهم ، نتيجة اختلاف مذاهبهم و آرائهم ، و قد يحكمه الغرضية فيما يؤولون . يقول الشاطبي " إن الإدراكات ليست على فن واحد ، ولا هي جارية على التساوي في كل مطلب ، إلا في الضروريات و ما قاربها ، فإنها لا تفاوت فيها يعتد به " (١) .

١-٣ المعرفة التداولية و القصد

يقصد بها " جملة من الاعتقادات و التصورات و التقويمات عن الذات و الغير و الأشياء و المعاني ، يشترك فيها المتكلم و المخاطب مع جمهور الناطقين " (٢) . فهي معرفة مشتركة بين المرسل و المرسل إليه ، و تشمل أنواعاً أربعة (٣) :

- لغوية : و تسمى الدلالة المركزية ، و يتعلق بها كل الدلالات التي تلزم عن العبارات اللغوية المصرح بها ، و التي يكون بمقدور كل واحد من المتكلمين استنتاجها و إدراك وجودها .
- وثقافية : و يتعلق بها كل المعلومات الواقعية و القيمة المرتبطة بالعالم الخارجي ، و التي يتمكن كل متكلم من تحصيلها و استعمال وظائفها .
- وعملية : و يتعلق بها كل ما يصاحب العبارات من أدوار عملية تجعل بعضها لازماً عن بعض .
- و حوارية : و يتعلق بها كل ما يتعلق بمقتضيات الكلام ، أو بما سبق من تخاطبات بين المتحاورين في نفس المقام أو غيره من المقامات .

(١) الشاطبي ، الموافقات ، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان ، دار ابن عفان ٦٠/١

(٢) طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان ص ١٥٢ .

(٣) إدريس مقبول ، في تداوليات القصد، ص ١٢١٩ .

فهناك اعتبارات علمية و تداولية تحكم التخاطب والتواصل بين المتخاطبين ، تقوم على معرفة واعية بالقصد و على علاقة متينة بالمعرفة المشتركة " و يمكننا القول إن المعرفة التي نملكها ، كمستعملي لغة ما ، عن التفاعل الاجتماعي عن طريق اللغة ليست سوى جزء من معرفتنا الاجتماعية الثقافية العامة . هذه المعلومات العامة عن العالم ، هي أساس فهمنا ، لا للخطاب فحسب بل ربما لكل جوانب خبراتنا الحياتية^(١) . إن هذه المعرفة المشتركة لكفيلة بتجديد المفردات و إقامة تواصل جيد مع العالم المتحرك و الموار ، و إقامة حركية المعنى ، بعيداً عن الأحكام الساكنة التي تتجاهل حياة القصد / المعنى .

ولا بد في إطار المعرفة المشتركة من الاتفاق على قصد واحد في أي تواصل صريح أو مضمّر ، " و لضمان هذا التواصل - بين المتكلم والمخاطب - لا بد أن يكون قصد المتكلم منشوراً حتى يتم تفكيك المضمون المطوي لدى المخاطب ، و لن يتسنى هذا النجاح إلا بشرط توافر معرفة متبادلة بين منشئ الخطاب (أي المتكلم) و مستقبله (أي المخاطب)^(٢) . و تتضمن المعرفة المشتركة معرفة يمتلكها أطراف التواصل (المتكلم و المخاطب) حول الخطاب المذكور ، حتى تتحقق الأرضية المشتركة في الفهم.

٢ - متضمنات القول

القصد أساس عملية التواصل و الإبلاغ ، و به وحدة عدّ المتكلم متكلماً وبذلك فإن أهم ما يتولد عن القصد مفهوم رائد في الدرس التداولي ،

(١) .ح.ب. براون ، تحليل الخطاب ، تحقيق محمد لطفي الزليطي ، منير التريكي ،

جامعة الملك سعود ، الرياض ، النشر العلمي ، ص ٢٧٩ .

(٢) . إدريس مقبول ، تداولية القصد ، ص ١٢٢٠ .

يعبر عن الأداء العقلي للغة من طرف المتكلم ، وما يضمّمه في كلامه من أمور لا يذكرها بصريح العبارة . وهذا ما يدعى بـ " متضمنات القول " ، ويتعلق هذا المفهوم بـ " رصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية و خفية من قوانين الخطاب ، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال و غيره " ^(١) . و يتحدد هذا الإجراء في الخطاب بأنه " مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية و خفية تحكمها ظروف كسياق الحال و غيره " ^(٢) .

و نستطيع توضيح هذا المفهوم ، فأبي حديث أو حوار يدور بين شخصين أو أكثر ، فإن هناك جانباً صريح و آخر ضمني ، و هذا الأخير يفهم من خلال حيثيات الكلام . إضافة إلى ذلك فإن الأقوال و الحوارات لا تتم دائماً بالتصريح أو المباشرة ، فهناك معوقات تمنعنا دون التصريح .

و يقرّ التداوليون هذا الأمر و " يجمعون على أن الإخبار لا يتم بالتصريح فقط ، و يعود ذلك إلى وجود العديد من المحظورات التي تمنع المتكلم من التصريح ، و هذه المحظورات قد يكون مصدرها المجتمع ، مما يحتويه من أخلاق و عادات و دين أو سياسة ... و ينعكس ذلك على اللغة باعتبارها وليدة المجتمع ^(٣) .

يعني ما سبق ، أن لكل جملة حوارية عدة دلالات منها ؛ ما هو منطقي وحقبي ، ومنها ما هو خاطئ و غير معقول ، ويرتبط هذا بطبيعة حال المتكلم ، فتأويل الكلام يكون على أساس الناطق به .

(١) مسعود صحراوي ، التداولية عند علماء العرب ص ٣٠ .

(٢) نفسه ص ٦٠ .

(٣) عمر بلخير ، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية ، منشورات الاختلاف ط ١ ، ٢٠٠٣ ، ص ١١١ .

وتكمن أهمية متضمنات القول في كيفية توصل المخاطب إلى ما يتضمنه القول ، و تحصيل الفائدة منه ، و الوقوف على ما قد يحتويه من معانٍ مختلفة ، لا تظهر إلا عبر السياق الوارد فيه ، و قد يكون مخالف تماماً للمعنى الحرفي . و تتشكل متضمنات القول في نمطين هما :

٢-١ الافتراض المسبق :

و هو من أبرز مفاهيم التداولية ، و له أهمية في كل تواصل لساني يعتمد على افتراضات و معطيات معترف بها ؛ لإنجاح عملية التواصل . فالمتخاطبون يبنون خطاباتهم عليها ، وقد تكون تلك المعلومات المشتركة بين كل من المخاطب و المخاطب المعروفة لديهما سابقاً ، و يعرفه التداوليون بأنه " العنصر الدلالي الخاص بالقول أو تحويله إلى الاستفهام هل ؟ أو نفي لا " (١) . و معنى هذا أن ما يدور بين المتكلم و المتلقي من خطابات ، يكون السامع قد سبق له ما ينوي ، أو ما يريد أن يقوله المتكلم حتى قبل أن يقوله أو يشير إليه . فالافتراضات المسبقة لا يصرح بها المتكلم ، وهي تشكل خلفية التبليغ الضرورية .

فمثلاً إذا خاطب المتكلم المتلقي ، ووجه له أمراً على أساس ما يفترضه سابقاً ، كقوله : أغلق النافذة ، لا تغلق النافذة . " ففي الملفوظين كلاهما خلفية افتراض المسبق مفهومها أن النافذة مفتوحة ، وكل هذا موصول بسياق الحال و علاقة المتكلم بالمخاطب " (٢) ، ويؤكد التداوليون إلى أن الافتراض التداولي لا دخل له بالصدق أو الكذب ، فهو يختلف تماماً عن الافتراض المنطقي .

ويتأكد الدور التداولي للافتراض المسبق في تأسيس المتكلم حديثه ، و تواصله مع المتلقي بناءً على المعلومات السابقة المشتركة بينهما ، و يعد هذا جزءاً جوهرياً من السياق و العملية الاتصالية .

(١) نفسه ، ص ١١٣ .

(٢) محمود أحمد نحلته ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، ط ١ ، ٢٠٠٢ ط ٢ .

٢-٢ القول المضمَر

يعرفه الدرس التداولي بأنه " كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها ، و لكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث " (١) . فالقول المضمَر هو معنى خفي في الكلام ، يفسّر ضمن السياق الذي يورد فيه . فالقول المضمَر يرتبط بوضعية الخطاب و مقامه على عكس الافتراض المسبق الذي يحدد على أساس معطيات لغوية . ففي الافتراض المسبق يعتقد المخاطب ما يؤكده ، ولا يتعمده . بينما في الأقوال المضمرة ، يسعى المخاطب إلى توظيفها حسب ظروف الخطاب. لذا نجده يعتمد استخدامها . و إذا حاولنا المقارنة بين متضمنين " فإن الافتراض المسبق وليد السياق الكلامي ، و الثاني ملابسات الخطاب (٢) ."

و القول المضمَر ، عبارة عن استنتاج " بما أن محلل الخطاب شأنه في ذلك شأن المخاطب ، لا يملك طريقة مباشرة للوصول إلى المعنى المقصود من طرف المتكلم عند تلفظه بالقول ، فهو في الغالب يحتاج إلى عملية الاستنتاج ، تمكنه من الوصول إلى فهم المقولات (٣) . و يتميز القول المضمَر بميزتين : الأولى : أنه غير مستقر أي يصعب تحديده ، والثانية : قدرة المتكلم على التخفي وراء المعنى الحقيقي الذي يريده ؛ هروباً من ردة فعل المتلقي ، إذا كان قد انزعج إلى معنى آخر .

(١) مسعود صراوي ، التداولية عند العلماء العرب ص ٣٢ .

(٢) السابق ، نفس الصفحة .

(٣) جورج براون ، و جورج يول ، تحليل الخطاب ص ٣٢ .

٣ - الاستلزام الحوارى

تعد المتضمنات فى القول نواة مركزية فى مبدأ الحوار بين المتكلم والمخاطب . فقد يحاول المتكلم تبليغ المخاطب أمراً ما على نحو غير مباشر ، وهو على يقين أن متلقيه قادر على فهم قصده ، مما يجعل المتخاطبين يتبعون بعض القواعد الاستلزامية أثناء التواصل . إن عملية الإبلاغ يزدوج فيها التصريح و التلميح أو الإظهار و الإضمار ، وهذا ما أسهم فى إدخال مفهوم "التضمين" ، لتفسير دلالة الجملة المضمره ، لتظل العملية التواصلية مرتبطة بقوانين مضبوطة ، قواعد لغوية و أخرى غير لغوية تواصلية .

والخطاب فى النظرية التداولية ، هو الكلام المقصود الذى يهدف إلى تبليغ فكرة معينة . فهو " محادثة ذات طبيعة رسمية ، أو المصطلح الرسمى المنظم للأفكار : سواء أكان مكتوباً أم مقروءاً ^(١)" وهذا التعريف يؤكد أن مسلمة الحوار من المسلمات البديهية فى الخطاب ، فلا كلام مفيد إلا بين اثنين يحكمهما مقامان : مقام المتكلم و مقام المستمع . و قد لا تكون هناك علاقة بين المتكلم والمخاطب أولاً ، فيسعى الأول إلى إيجادها . فالعلاقة بين المتكلم والمخاطب من العناصر المؤثرة فى الخطاب ، وقد يتوقف الخطاب على ما يعرفه المتكلم على الآخر ، وما يشتركان فى معرفته عن السياق ، ويشترك فى هذا الافتراضات المسبقة للمتخاطبين .

(١) عصام خلف كامل ، مفهوم الخطاب فى الدراسات الأدبية و اللغوية المعاصرة ، دار فرحة للنشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ط١ ، ٢٠٠٠ ص ٧ .

٣-١ مفهوم الاستلزام

أسس لهذا المفهوم "جرايس"، عندما وجد أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون ، و قد يقصدون أكثر مما يقولون ، وقد يقصدون عكس ما يقولون ، فجعل كل همه إيضاح الاختلاف بين ما يُقال ، وما يُقصد . فما يقال هو ما تعنيه الكلمات و العبارات بقيمها اللفظية ، وما يُقصد ، هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر ؛ اعتماداً على أن المخاطب قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم ، بما يتاح له من أعراف الاستعمال و وسائل الاستدلال ، فأراد أن يقيم جسراً بين ما يحمله القول من معنى صريح ، وما يحمله من معنى متضمن ، فكان مفهوم الاستلزام.

ونستطيع أن نخرج مما سبق في تحديد مفهوم الاستلزام الحوارية ، الذي يعني أن يتحقق التعاون بين المتكلم و المخاطب وصولاً إلى حوار مثمر . فالاستلزام الحوارية يقدم تفسيراً صريحاً لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول الفعل أي أكثر مما تؤديه العبارات المستعملة^(١).

٣-٢ أنواع الاستلزام

٣-٢-١ الاستلزام النموذجي / العرفي

يقوم على ما تعارف عليه أهل لغة معينة فيما بينهم ، و يتحقق من خلال وجود بعض الألفاظ التي تستلزم دوماً دلالات معينة و ثابتة ، لا تختلف باختلاف السياق و التركيب^(٢) . و هذا النوع يسميه السكاكي ؛

(١) مثل عبارة " ناولني القلم من فضلك " المنجزة في مقام محدد ، و التي يخرج معناها عند الطلب (الأمر) إلى معنى الالتماس ، و هو ما أفادته القرينة " من فضلك " .

(٢) مثل كلمة (لكن) في العربية فهذه الكلمة تستلزم دوماً أن ما يأتي بعدها يكون مخالفاً لما يتوقعه السامع ، نحو ، محمد رجل فقير لكنه كريم .

إجراء المعنى على الأصل ، و ذلك باستعماله في سياقات عامة ، يتعذر على المرسل إليه الانتقال إلى قصد غير القصد الأصلي الذي يتطابق فيه معنى الخطاب مع قصد المرسل^(١).

٣-٢-٢ الاستلزام الحواري

هو الاستلزام التخاطبي ، الذي يكون متغيراً بتغير السياقات التي يرد فيها . وهو الذي ينتج عن خرق القواعد إذ يكون ذلك في سياق خاص ، يحتاج فيه طرفا الخطاب إلى معلومات إضافية . و لذا ، فهو أكثر تعقيداً في الاستدلال لمعرفة قصد المتكلم . و يبنى الاستلزام الحواري على مبدأ عام، يقضي بتعاون المتخاطبين في الوصول إلى الهدف من الخطاب ، وصيغة مبدأ التعاون هي " ليكن اندفاعك في الكلام على الوجه الذي يقتضيه الاتجاه المرسوم للحوار الذي اشتركت فيه "^(٢). إذ يساعد هذا المبدأ في تسهيل التفاهم ، و تحقيق التأثير ، وإنجاز الفعل . كما أنه يجب على المتكلم " أن يراعي المخاطب في كل ما يأتي و يدعي لغوياً و نفسياً واجتماعياً و ثقافياً ، بل إنه يسخر في ذلك ما يعين في التبليغ بالإشارة و الملامح . ليجد من المخاطب نفسه متعاوناً متمثلاً في الإصغاء و محاولة و الفهم "^(٣). فعلى أطراف الحوار أن تتعاون فيما بينها لتحصل المطلوب ، وأن يتعاون المتكلم و المخاطب على

(١) راجع ، السكاكي ، مفتاح العلوم ، تحقيق عبد الحميد هندواي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ط ١ ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ص٥٢٣ الذي ينطلق من أن العبارة يمكن أن تغير ما وضعت له (الحقيقة) كما يمكن أن تفيد غير ما وضعت له (المجاز/الكنائية) و العلاقة بينهما هي علاقة لازم بملزوم أو ملزوم بلازم .
(٢) عبد السلام عشير ، عندما نتواصل نغير ، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل و الحجاج ط أفريقيا الشرق ، المغرب ٢٠٠٦ ص٤٧ .
(٣) راجع ، أن روبول ، جاك موشلار ، التداولية اليوم ، علم جديد في التواصل ، ترجمة سيف الدين دغفوس ، محمد الشيباني ، مراجعة لطيف زيتوني ، المنظمة العربية للترجمة بيروت، ص ٥٥ ، ٥٩ .

تحقيق الهدف من الحوار الذي دخل فيه . بيلور "غرايس" هذه العملية حيث

يقول ، " أن تجعل مساهمتك في المحادثة كما هو مرجو منك من حيث اختيار التوقيت المناسب ، و أن تكون تلك المساهمة متماشية مع الهدف والتوجه المسلم بهما للتبادل الخطابي الذي تقع ضمنه " (١) .
 ويعني هذا ، أن مبدأ التعاون يسلم إلى التواصل التفاعلي بين المتخاطبين عن طريق اللغة ، و يقتضي هذا الفعل أمراً يختص بكل من الإنتاج والتأويل . فيحيل الإنتاج إلى التلفظ الذي يرتبط بالمتكلم منشئ الكلام ، ويتطلب التأويل من المخاطب الاستناد إلى وسائل لسانية و غير لسانية .

٣-٢-١ مبادئ الاستلزام الحواري

هناك قواعد أو مسلمات لمبدأ الاستلزام الحواري تتحقق في (٢):

- قاعدة الكم أو القدر : و تختص بالدلالة ، فتكون إفادة المتكلم على قدر حاجة المخاطب ، ولا تتجاوز الحد المطلوب من الذي يقتضيه التواصل .

- قاعدة الكيف أو النوعية : و القصد منها صنع إدعاء الكذب ، فلا يقل المتكلم ما يعلم خطأه ، ولا يقل ما ليس له عليه دليل .

- قاعدة العلاقة أو الملاءمة : بأن يناسب المقال المقام (٣) ، فيجعل المتكلم كلامه ذا علاقة بالموضوع .

(١) ج.ب براون ، ج.يول ، تحليل الخطاب ص ٤٠ .

(٢) ينظر ، طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان ص ٢٣٨ بتصرف .

(٣) سيأتي الحديث عن نظرية المقام في الدرس العربي القديم .

- قاعدة الجهة أو الطريقة : و هي ترتبط بما يراد قوله ، و تتفرع بدورها إلى الاحتراز من الالتباس ، ومن الإجمال ، وليتكلم بإيجاز مع ترتيب الكلام .

و هذه القواعد هي بمثابة الضوابط لكل عملية تخاطبية ، و على الطرفين الالتزام بها في أثناء الحوار ، و إذا أخل أحد الطرفين بإحداها ، و يجب عليه أن يصرف كلام محاوره إلى معنى مضمّر / خفي يقتضيه المقام ، وذلك عن طريق الاستدلال من المعنى الظاهر و من القرائن . ولقد تنبه الفكر اللغوي العربي القديم إلى هذا المفهوم " الاستلزام الحوارى " باعتباره إشكالاً دلاليّاً ، يبرز من حين لآخر أثناء الخطاب . و تناول علماء البلاغة و الأصول ، و وضعت له مصطلحات تباينت بتباين تلك العلوم ، منها الأغراض التي تؤديها الأساليب ، و دلالة المفهوم ، و المعنى المقامى ، و المعنى الفرعى ، و غيرها من المصطلحات التي تدل على وعيهم بهذه الظاهرة اللغوية ^(١) . و عُدّ السكاكي في كتابه " مفتاح العلوم " نموذجاً متميزاً للوعي البلاغى بمفهوم الاستلزام الحوارى .

(١) راجع العياشي أدراوى ، الاستلزام الحوارى فى التداول اللسانى من الوعى بالخصوصيات النوعية الظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ط ٢٠١١ ، ص ٢٥ ، و راجع دراسة أحمد المتوكّل ، دراسات فى نحو اللغة العربية الوظيفية ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ١٩٨٦ الذى حاول فيها أن يستكشف المعالم الريفية للوصف العربى القديم لهذه الظاهرة معتمداً على ما قدمه السكاكى فى مفتاحه ، لأنه وجد تناوله يتجاوز الملاحظة المجردة إلى التحليل الملائم للظاهرة الذى يضبط علاقة المعنى الصريح بالمعنى المستلزم مقامياً ، و يضيف آلية الانتقال من الأول إلى الثانى بوضع قواعد استلزامية واضحة .

٣-٢-٢- خصائص الاستلزام الحواري

للاستلزام الحواري عند "غرايس" خواص تميزه عن غيره من أنواع الاستلزام الأخرى ، نستطيع أن نجملها في الآتي^(١):

- قابليته للإلغاء : و يتم ذلك إذا عمد المتكلم إلى إضافة ما من شأنها أن تسد الطريق أما المخاطب عند تهيئته للدخول في عملية التأويل ، وذلك بغية الوقوف على المعاني الضمنية للعبارة . وإمكان الإلغاء هو أهم اختلاف بين المعنى الصريح و المعنى الضمني ، وهو الذي يمكن المتكلم من أن ينكر ما يستلزمه كلامه.

- الاستلزام لا يقبل الانفصال : فالاستلزام الحواري متصل بالمعنى الدلالي لما يقال ، وليس بالصيغة اللغوية التي يقال بها ، فهو لا ينقطع مع استبدال مفردات أو عبارات بأخرى ترادفها .

- التغيير : و تغيير الاستلزام يعني أن العبارة الواحدة يمكنها أن تؤدي إلى استلزمات متغيرة ، و مختلفة باختلاف السياقات التي ترد فيها .
القابلية للتقدير : و يعني ذلك أن المخاطب يقوم بخطوات محسوبة حتى يصل إلى ما يستلزمه الكلام من معانٍ ضمنية ، و يتحقق ذلك في العبارات التي تضم الاستعارة و الكناية .

(١) راجع ، محمد أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص ٣٨.

ثانياً : تداولية الخطاب

١ - الخطاب و السياق

تسعى التداولية إلى دراسة الاتصال اللغوي في سياق تخاطبي معين ، وهذا السياق يمثل في التداولية مفهوماً إجرائياً مركزياً يساعد على تحليل الخطاب . فما أرساه "جرايس" من شروط لصحة العملية التخاطبية التي تقوم على عملية التفاعل الحواري المتكئ على مبدأ التعاون بين المتكلم و المخاطب ، و الذي يستند إلى مرجعيات عدة : اجتماعية و عرقية و ثقافية ، تحاول تشكيل سياق يمكن أن يمثل نصاً مرافقاً ، يسهم في إنتاج المعنى المراد من الحوار و تحديده .

و مما لا شك فيه ، أن إظهار البعد الوظيفي أو الأيديولوجي للنص الخطابي ، يحيلنا حقاً إلى فكرة السياق . و يمكننا أن نركز على سياقين أساسين من أنواع السياق ، و هما سياق : الموقف أو المقام ، و السياق اللغوي^(١) . ذلك أن المعنى لا ينتج من الكلمة وحدها ، و إنما يدخل في شبكة علاقات مع كلمات أخرى تختلف معها ، و تتشابه لأداء المعنى التركيبي . أما ما يتعلق بسياق المقام أو الموقف ، فهذا الذي يرتبط بالموقف أو المقام الذي قيل فيه الكلام . بمعنى أن المقام يكون حينئذٍ مقام التفظ ، و هو يتعلق بالظروف الخارجية للموقف الذي تقع فيه الكلمة .

ولكي نتبين علاقة الخطاب بالسياق ، ينبغي أن نعرف بنية الأخير ، كما نتعرف على بنية الخطاب . و السياق هو تجريد للموقف التواصلية ،

(١) يقصد بالسياق اللغوي : الإطار الداخلي أو البنية الداخلية للغة دون الرجوع إلى المجتمع ، جاسم محمد العبود ، مصطلحات الدلالة العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١ ، سنة ٢٠٠٧ ، ص ١٤١ .

والذي يتضمن عناصر عدة تحدد بشكل منظم " قبول النص أو رفضه ، كفاءته أو عجزه ، ملاءمته أو منافرته " (١).

فالعلاقة وطيدة بين الخطاب و السياق ، و هي نتيجة الموقف التواصلية الذي خاطب فيه المتكلم المخاطب مريداً من خطابه تحقيق قصد معين . ومن هنا يؤدي السياق أثراً فاعلاً في العملية التخاطبية ، بوصفه أداة مهمة تساعد في الكشف عن مقاصد المتكلم ، و توضيح نواياه الظاهرة و الخفية ، بغية إفادة المخاطب المعنى الذي يتوخاه من الخطاب .

إن تحليل السياق في النظرية التداولية يعتمد على المعرفة الموسوعية التي نتوصل إليها من خلال مفاهيم الصيغة المنطقية من المعطيات التي يمكن إدراكها مباشرة من المقام .فالانتقال من المقاصد الإجمالية يتم نمطياً عبر نظرية الفكر ، إذ يفترض أن كل متلفظ يخاطبنا ، يسعى حتماً إلى تبليغ رسالة هي مقصده الإجمالي .

فالاعتناء بمقام الملفوظ من اهتمامات الدرس التداولي ، و انطلاقاً من هذه الوظيفة رأي " ديكرو" و أن " التداولية تدرس كل ما في معنى الملفوظ المرتبط بالمقام الذي قيل فيه ، ولا بالتركيب اللساني الذي استعمل فيه " (٢). و يمكن أن تمثل الأساليب التخيلية أمثلة مهمة و فاعلة في إظهار السياق الثقافي في تكوين المعنى المراد ؛ لأنها تمثل سياقات محددة ، تتأثر بالعرف الاجتماعي و الثقافي في تكوين المعنى المراد ؛ لأنها تمثل سياقات محددة ، تتأثر بالعرف الاجتماعي و الثقافي في السائد الذي يساعد على تحقيق التواصل التخاطبي بأسلوب تعاوني ، كما

(١) صلاح فضل ، بلاغة الخطاب و علم النص ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ط ١

سنة ٢٠٠٤ ص ٣٢ .

(٢) أن ربول و جاك موشلار ، التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، ص ٧٧ .

يعمل على تحقيق الهدف من الخطاب الذي يخضع لمواضعات و محددات ثقافية واجتماعية يحددها العرف السائد و الاستعمال اللغوي .
ويعد مفهوم السياق/المقام^(١) من المفاهيم التي أسالت الكثير من الحبر في الدرس العربي القديم ، و تحققت لدى العرب القدامي جميع خيوطها ، وبرزت عناصر هذه النظرية في مجموعة من القضايا اللغوية و غير اللغوية التي يمكن أن تجمل فيما يلي^(٢):

- النظرات النقدية عندهم في الشعر و الشعراء .
- بحوثهم البلاغية و حديثهم عما يسمى بمطابقة الكلام لمقتضى الحال .
- الدراسات القرآنية التي كان أساسها فهم القرآن الكريم ، فقد اقتضت العناية به الخوض في مسائل لغوية متعددة بتعدد العلوم القرآنية ، و هذا ما نجده مثلاً عند عبد القادر الجرجاني في دلائل الإعجاز ، و الجاحظ في البيان و التبیین و فخر الدين الرازي في التفسير الكبير ، و السكاكي في مفتاح العلوم ، و خاصة الكتب الأصولية منها .
- وقد أخذ مفهوم المقام في التبلور على يدي الجاحظ في البيان و التبیین ، فأرسي بلاغة المقام :

(١) لمفهوم المقام في الاستعمال العربي ثلاث دلالات مختلفة : أولها : دلالة غير اصطلاحية و فيها يكون المقام مرادفاً للفضاء العمومي التواصل و لمقتضى الحال و للظرف الخارجي الذي ينجز فيه الكلام و تتخذ فيه المواقف و يقال لكل مقام مقال ، و الدلالة الثانية : ارتبطت بجنس الخطاب الذي يسمى المقام أي خطاب حلقة الزهد و الوعظ التي يلقي فيها الخطيب أقوالاً تذكر بيوم القيامة و تحث على صالح الأعمال ، و أما الدلالة الثالثة للمقام فقد تمخضت لترادف السياق التخاطبي الذي ينتج مختلف أجناس الكلام الأدبي و غير الأدبي ، راجع صالح بن الأدبي رمضان ، التواصل الأدبي ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) عبد النعيم خليل ، نظرية السياق بين القدماء و المحدثين ، دراسة لغوية نحوية دلالية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، الإسكندرية ، ص ١٠٨ . .

وقعد قواعده ، و التي تقوم على مراعاة الجانب النفعي الإقناعي الخطابى، وهو يرادف في التداولية مفهوم الكفاية التواصلية ، فبأى شيء أدركت المعنى ، فذلك هو البيان " لأن مدار الأمر على البيان و التبيين و على الإفهام و التفهم " ^(١). فإدراك المقام لدى الجاحظ ملكة تواصلية ، تختص بالسياق الذي تتجز فيه الأعمال اللغوية ذات السمة التفاعلية الاجتماعية كالإيجاز و الإطناب ، و التوبيخ و الشكر و الاعتذار و العتاب .

و ينتهج الزمخشري و الجرجاني نفس النهج الجاحظي في تغليب بلاغة التلفظ ، أى الآليات التي يستعملها كل متكلم بحسب المقام الذي يتكلم فيه ، و قد يخلو الخطاب من الأساليب البيانية و الإيقاعية ، لكنه يحقق نجاعته بمراعاة المقام . فالمتكلم يختار ألفاظه و ينظم تراكيبه و يوجه دلالتها بحسب صورة المخاطب ، و بمقتضى تقبله ، و بطبيعة موقعه الاجتماعى و الثقافى و بمراعاة حالته النفسية زمن التخاطب ، و بحكم جنسه و عدده و اتجاهه الفكرى ، و غاياته و تصوره للمتكلم ، و وعيه الفردي و الجمعي .

٢ - الخطاب في ذاته

٢-١ نظرية التلفظ

٢-١-١ مفهوم التلفظ

إن لمقولة التلفظ أو التخاطب في الدرس التداولي ، أهمية قصوى . باعتبارها الجهة التي يدرك من خلالها المتكلم العالم باستعماله للغة . " فالتلفظ هو تمثيل الواقع باللغة من جهة المتكلم و من منظور المخاطب

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ٢٣/١ .

"(١) ويرى اللساني بنفيست " أن التلفظ هو تطبيق اللغة في الميدان عن طريق عملية استعمال فردية لها "(٢). و إذا كان بنفيست لا يهتم بطرف المتلفظ ، فإن التداوليين يتسع لديهم المفهوم ليشمل الطرف المشارك للمتلفظ في عملية التواصل . فالتلفظ أو التخاطب هو العمل الفردي ، الذي ينجز في اللغة لإنتاج ملفوظ من الملفوظات في ظرف مخصوص ، ويتجه إلى مخاطب مخصوص . و استراتيجيات المتكلم في كل جنس أدبي : شعراً أو نثراً ، هي آثار التخاطب في ذلك اللون الأدبي. و كما قلنا سابقاً إن الخطاب هو نتاج قصدية المتكلم ، فإن غاية المتكلم أثناء مخاطبته للآخر، أن تتسجم مقاصده بالأساليب التي يصوغ عليها ملفوظاته . فلا يمكن أن نجد متكلماً بقصد التأثير في الآخر لا ينتبى استراتيجية معينة ، يفرضها عليه المقام التبليغي و مختلف سياقاته . فالمتكلم يلجأ إلى تبني بعض الأساليب الكلامية من أجل تحقيق غاية تأثيرية .

٢-١-٢ أوضاع التلفظ

ينظر إلى الخطاب من وجهة نظر تداولية لبيان وجهة التلفظ ، والتخاطب . فالخطيب يحول وجهته من مخاطب إلى آخر، فتتغير أوضاع التلفظ ، و أوضاع المتخاطبين . " ولا يخلو أي جنس أدبي مهما تكن درجة أحادية الصوت فيه من تصرف يجريه منتج الخطاب ؛ سواء مباشرة أو بقناع نسميه في الخطاب السردي راوياً ، و في الخطاب الرسائل ، مترسلاً وفي الخطابة خطيباً ، و في الخطاب المسرحي

(١) صالح بن الهادي رمضان ، التواصل الأدبي ، ص ٩٩ .

(٢) جان سرفوني ، الملفوظية ، ترجمة قاسم المقداد ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ط ١ ١٩٩٨ ص ٢٢ .

شخصاً ممثلاً" (١). ويمكن أن نقسم أوضاع التلطف إلى نوع متصل بأوضاع منتج الكلام ، ونوع متعلق بمتلقيه .

٢-١-٢-١ أوضاع المتلفظ : المتكلم والمتلفظ

إن أوضاع التلطف من جهة منتج الكلام / المتكلم معقدة ، و ذلك لأن تنوع البنى الصرفية و النحوية (٢) في النص /الخطاب إنما جاءت لتسهم في تدقيق أوضاع التلطف ، و لتحمل مسئولية الخطاب لهذا الطرف دون ذلك . كما أن القيمة الدلالية لمفهوم المتلفظ غير محددة ، و غير قارّة ، بل تختلف باختلاف العلاقات بينه و بين المفاهيم المجاورة له ، كالذات المتكلمة ، أو وجهة النظر .

و تجدر الإشارة إلى أن الاهتمام بالمتلفظ نظرياً ، هو المتلفظ في حال التواصل أو في الخطاب الأدبي ، لذا لا بد من الفرقة بين التلطف و التكلم ، فالأول هو إحداث الأثر الذاتي في الكلام ، فالمتلفظ يتحمل مسئولية إنتاج الخطاب بنية و دلالة ، فالتلطف يوجه موقف المتكلم من المخاطب ، وكيفه أو يعدله ، و يضع على عاتق المخاطب مسئولية الرأي الذي يصدره .

وعليه فإن أي خطاب يبتعد عن الارتباط بظروف التلطف و المقام كالخطاب العلمي ، و التقارير و اللوائح .. إلخ ، فإنه يتلخص تماماً من آثار التلطف أو من آثار الذات المتلفظة أو الذاتية في اللغة لأن المتكلم لا

(١) صالح بن الهادي رمضان ، التواصل الأدبي ص ١٠٣ .

(٢) فالمبني للمجهول بنية صرفية - نحوية ، يستخدمها المتلفظ بالخطاب للتوصل من مسئولية الخبر أو السرد أحياناً : " يُحكى أن " و " قيل أن " ، ولا فرق بينها و بين فعل زعموا من جهة تبني مسئولية التلطف ، راجع صالح بن الهادي رمضان ، التواصل الأدبي ص ١٠٤ .

يسعى عبر أساليب مختلفة إلى توجيه الدلالة أو إلى التأثير في
المخاطب .

٢-٢-١-٢ أوضاع المتلفظ : المخاطب و المتلفظ

إن أوضاع تلقي الخطاب ليست بأقل تعقيداً من أوضاع التلفظ به . وذلك لأن المخاطب ذات لها حضورها في الخطاب ، موجهه له محددة لمضامينه و أشكاله ، مؤثرة في أعماله القولية . فالمتكلم / الخطيب ، يمكن أن ينتقل من مخاطب إلى سواه في الخطبة الواحدة . و المخاطب حاضر في الخطاب من خلال عناصر متعددة ، منها : ضمائر الخطاب ، المنادى ، (خليلي عوجاً .. كتاب إليك ..) و الأقوال الحوارية المنسوبة إليه (قلتُ ، قلتَ) ، و أساليب الدعاء ، و صيغ الأفعال

(أفعال الأمر و النهي)^(١) . و ليس للمخاطب صورة واحدة في كل خطاب بل تتجدد بتجدد ضروب الالتفات و أنواع الأغراض . و قد يتخذ المتكلم صيغة الجمع ، ليجمع بينه و بين المخاطب ؛ ليشعره - مثلاً - بأنه طرف في بناء فكرة ما ، أو ليحمله وزر عمل من الأعمال ... الخ .

وهكذا تعد دراسة ضمائر الخطاب^(٢) من أهم مداخل تحليل أوضاع المتلفظ ، المخاطب و المتلفظ ، و للوصول إلى تحليل القيم التداولية في التواصل الأدبي .

٢-١-٣ مرجعيات التلفظ

(١) صالح بن الهادي رمضان ، التواصل الأدبي ، ص ١٠٧ .
 (٢) الضمائر : كضمير أنا الغنائي ، مثل الشعر الغنائي ، و ضمير المتكلم بصيغة الجمع كالخطاب الملحمي و ضمير المخاطب المفرد كالخطاب الحوارية و ضمير المخاطب بصيغة الجمع كالخطابة السياسية و التلفظ الموضوعي (المقولي) أي الذي يخلو من حضور الذات كالحكمة و الخطاب القانوني .

يمكن تعريف مرجعيات التلفظ بأنها " علامات تحيل إلى ملفوظيتها " ^(١). ومرجعيات التلفظ تفترض وجود متكلم ، و مخاطب ، و زمان و مكان معينان . و لكل عنصر منها له إشاراته المحددة له : " أنا ، أنت ، هنا ، الآن ، عبارة عن كلمات تشير ، من داخل الملفوظ ، إلى تلك العناصر الأساسية المكونة للملفوظية " ^(٢).

و تحتل دراسة المرجعيات مكانة مهمة لمسألة : الشخص (متكلم ، مخاطب)، و زمن الملفوظ و مكانه . و تتمثل تلك المرجعيات في الإشارات مثل : أسماء الإشارة ، و أسماء الموصول ، و الضمائر وظروف الزمان و المكان و غيرها من العلاقات اللغوية التي لا يتحدد مرجعها إلا من سياق الخطاب . فلا دور في الإحالة إلى المعلومات (الإشارات) . هذه الأشكال هي التي " ترتبط بسياق المتكلم مع تفريق الأساس بين التعبيرات ذات الإشارة القريبة من المتكلم ، مقابل التعبيرات الإشارية البعيدة عنه . فكل فعل لغوي يكون ناجحاً إذا علم المخاطب قصد و إحالة العبارة ، و إذا كان المتكلم غرض ينبغي بموجبه أن يشكل المخاطب بموجبه هذه المعرفة " ^(٣).

كما تشكل الدلالات الإيحائية جزءاً من أوجه اللغة التي يصعب الإحاطة بها . و يبدو ذلك من خلال العلاقات القائمة بين الافتراض المسبق وذاتية المتكلم . فالافتراض المسبق هو الفعل الذي يفرض المتكلم من خلاله على المخاطب عالماً من الخطاب . و يتجلى الافتراض المسبق

(١) جان سرفوني ، الملفوظية ص ٢٧ .

(٢) السابق ، نفس الصفحة .

(٣) السابق ، الصفحة نفسها .

في كل مكان في الخطاب ؛ كالمعجم و التركيب . و لذا يفتقر إلى
علاقات تسهل تحديده .

٢-٢ نظرية الفعل الكلامي

٢-٢-١ ماهية الفعل الكلامي

لا يكاد القارئ المتتبع للمصادر و الكتب التي تناولت بالدراسة المنهج التداولي ، يجد في التداول الفكري لهذه المبادئ عدم التعرض لنظرية الأفعال الكلامية ، إذ تعتبر هذه النظرية قرين التداولية ، و التي ترى أننا نستطيع اتخاذ اللغة كوسيلة للتكريس الفعلي لسلوكنا الذي نمارسه في الحياة اليومية . و يقصد بالفعل الكلامي كما رآه "أوستن" : الأداء والتصرف و الإنجاز. و بمعنى قولنا شيئاً ؛ يعني أننا تصرفنا أو فعلنا شيئاً ما ... و عموماً فإن الفعل الكلامي ، هو الصيغة الكلامية التي تتجز عملاً اجتماعياً بمجرد النطق به ، و ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي . فضلاً عن ذلك ، يتضمن غايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي^(١) . فالمقصود بالفعل في هذه النظرية ، ليس الحدث الصوتي فقط ، و إنما هو ذلك الفعل اللغوي الذي يترك أثراً بعد إنجازه ؛ فالتلفظ بجملة من العبارات في سياق معين ، وفقاً لظروف تبليغية مناسبة ، يعني إنجازها في الواقع^(٢) . فكل فعل كلامي ناجح ، يعني توفير الظروف السياقية المناسبة ، و علم المخاطب بقصد المتكلم و فهمه .

(١) خميس فزاع عمير ، عمر علي محمد ، نظريات المنهج التداولي عند علماء جامعة أكسفورد تحليل و صفي تطبيقي ، مجلة الفنون و الأدب و علوم الإنسانيات و الاجتماع ، العدد ٥ ، نيسان ، أبريل ٢٠١٤ ، ص ٩ .

(٢) و ذلك مثل جملة " رُفعت الجلسة " من قِبَل القاضي في المحكمة فهي تتطلب إنجازاً في الواقع ، حيث لا يمكن أن تبدأ الإجراءات و أن يدلي الشهود و المحامون و القضاة و المتهمون بشهاداتهم و أقوالهم و آرائهم و أحكامهم إلا بعد حصول فعل الافتتاح من قبل الرئيس المتكلم ، راجع أبو بكر العزاوي ، اللغة والحجاج ، منتديات سور الأزبكية ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ١٤٢٦ _ ٢٠٠٦ ، ص ١٢٥ .

٢-٢-٢ تصنيف نظرية الفعل الكلامي

٢-٢-٢-١ "أوستين" و الفعل الكلامي

يعتبر "جون أوستين" مؤسس هذه النظرية ، التي مثلت موقفاً مضاداً لاتجاه الوضعية المنطقية ، التي تعتبر أن اللغة وظيفة واحدة تنحصر في: رسم و وصف وقائع العالم ؛ وصفاً يكون صادقاً أو كاذباً . حيث رأى أوستين " أن هناك العديد من العبارات التي تشبه العبارات الوظيفية في تركيبها ، و لكنها تصف وقائع العالم ، ولا يمكن أن ينطبق عليها معيار الصدق و الكذب "(١).

لقد تمثل هذا الطرح في النظر إلى الأقوال اللغوية في نشاطها الاجتماعي، المنتجة من طرف المتكلم في إطار التواصل . فدورها لا ينحصر في نقل الأخبار و وصف الوقائع ، و توصيل المعلومات إلى المخاطب عن طريق علامات صوتية ، بل إن هناك أفعالاً ، تتجز في الواقع ، و تبدل قناعات الأفراد و اعتقاداتهم بمجرد التلفظ . حيث اعتبر هذا الفيلسوف أن " إحداث التلفظ هو إنجاز لفعل و إنشاء لحدث " (٢).

و قد ميز أوستين بين نوعين من الأقوال :

- الأقوال الإنجازية : و هي إنجاز ما قيل عن طريق التلفظ . فاللغة تشتمل على : أسئلة و عبارات تعجب ، و أوامر و تعابير خاصة بالوعد و الأمنيات و الترغيب و التشجيع .

(١) راجع ، محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص ٤٣ .
(٢) جون أوستين ، نظرية أفعال الكلام العامة ، ترجمة عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ١٩٩١ ص ١٧ .

- الأقوال التقريرية : و هي الأقوال الخاضعة لمعيار : الصدق و الكذب مثل قولنا : افتح الباب . فهذا ملفوظ إما صحيح أو خاطئ . و تحقيق الفعل مترتب على تلفظ الجملة ، و بالتالي يصبح هذا الملفوظ تقريرياً .

و عليه ، حدد نوع الملفوظ من خلال الفعل الذي يظهر فيه إلى :

- أفعال إخبارية : مثل كتب ، قرأ .
- أفعال إنجازية : مثل أقول ، أرفض ، أقبل .
- و لتحقيق الأقوال الإنجازية ، وضع شروط تحققها ، و قسمها إلى :
- أ- شروط تكوينية :
- وجود إجراء عرفي مقبول ، و له أثر عرفي معين .
- أن يتضمن الإجراء نطق كلمات محددة ، ينطق بها أناس معينون في ظروف معينة .

- أن يكون الناس مؤهلين لتنفيذ هذا الإجراء .

- أن يكون التنفيذ صحيحاً .

- أن يكون التنفيذ كاملاً .

أما الشروط القياسية فهي :

- أن يكون المشارك في الإجراء صادقاً في أفكاره .

- أن يكون المشارك في الإجراء صادقاً في مشاعره .

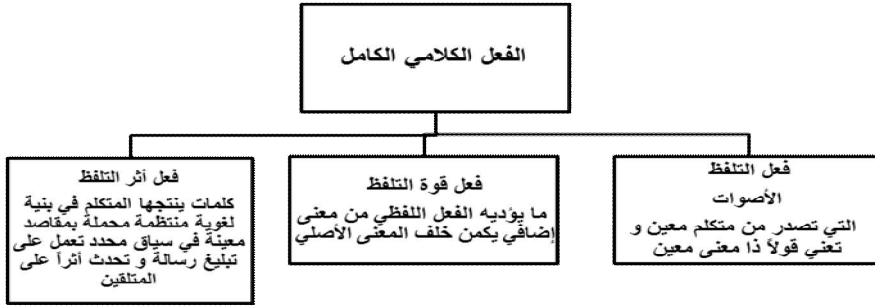
- أن يكون المشارك في الإجراء صادقاً في نواياه .

- أن يلتزم بما يلزم به ^(١) .

(١) راجع ، محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص ٤٤ ،

وقد اعتبر أوستن أن تحقق الشروط التكوينية ، يؤدي إلى تحقق الشروط القياسية . فإذا تحققت كان فعلاً أدائياً موفقاً . و إذا لم تتحقق كان ذلك إيذاناً بإخفاق الأداء .

كما قام "أوستن" بتحليل الأفعال الكلامية إلى : نطقية / لفظية ، و هي الأصوات التي ينطقها المتكلم في صورتها التركيبية الفعلية و معناها المعجمي . و إنجازية، و هي التي يقصد من خلالها المتكلم الوصول إلى بعض الأهداف . و تأثيرية ، و هي ما يخلفه القول من تأثير . ويمكننا إجمال هذا التصنيف في المخطط التالي :



فالوظيفة الإنجازية التي تتأتى من الملفوظات ، هي التي تحدث القطيعة بين تطبيق معيار الصدق و الكذب ، و كل الملفوظات التي تصدر من متكلم معين . اعتباراً لمعيار القوة الإنجازية " القائم على عامل القصدية " . و بناء على هذا المعيار (القوة الإنجازية) قسم "أوستن" الأفعال الكلامية من حيث معناها إلى مجموعات وظيفية (1):

(1) . راجع ، عمر بلخير ، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية صـ ١٥٩ .

- الأفعال الدالة على الحكم : و هي أفعال تثبت في بعض القضايا من سلطة معترف بها رسمياً (القضاة و الحكام) .
- أفعال الممارسة : و هي الأفعال الحاملة لقوة في فرض واقع جديد مثل التعيين ، و الترشيح ...
- أفعال الوعد : و هي أفعال كلامية ، تلزم المتكلم القيام بعمل ما ، معترف بها من قبل المخاطب و من أمثلتها : الوعد و الضمان و التعاهد ... الخ .
- أفعال السلوك : و هي ردود الأفعال الناتجة لحدث أو مثير ما كالاعتذار و الشكر .
- أفعال العرض : و تستخدم هذه الأفعال الكلامية عادة في إيضاح وجهات النظر و الآراء عن طريق الحجج ، مثل الإثبات ، التأكيد ، النفي، الشرح ، التوضيح .. الخ .
- ثم إن هناك تصنيف آخر قام به "سيرل" ، حيث أضاف تعديلات لما قدمه "أوستن" في بعض النقاط في نظرية الأفعال الكلامية .
- ٢-٢-٢-٢ "سيرل" و الفعل الكلامي
- اتجه "سيرل" إلى إعادة تصنيف الأفعال الكلامية ، طبقاً للقيام بفعل معين من جهة ، و جعل الأفعال مطابقة للعالم أو العكس . و قد يكون الهدف منها، جعل المخاطب يفعل شيئاً ما . فالهدف الإنجازي من الأمر ، و الوعد ، هو ذاته ، كلاهما يجعلان المخاطب يقوم بشئ ما ، أو بتغيير الوضع الآني ، و لكن القوة الإنجازية تختلف من فعل إلى آخر . و على هذا ، أتسع مفهوم الفعل الكلامي عند "سيرل" ليشمل " جمع المنطوقات ، فجميع الجمل في اللغة لديه ، إنجازية ، ولكنها تختلف في الغرض

(خبرية كانت أم إنشائية) ^(١) - و لقد صنف "سيرل" الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف :

- التأكيديات / التقريريات : و هدفها " تعهد المرسل بدرجات متنوعة ، بأن شيئاً ما هو واقعة حقيقية ، و تعهده كذلك بصدق قضية ما ^(٢) .

- التوجيهيات / الأوامر : " و هدفها جعل المرسل إليه يفعل شيئاً ما ، أو يحاول المرسل تحقيق هذا الهدف بدرجات مختلفة ، تتراوح بين اللين ، وذلك بالإغراء ، و الاقتراح أو النصح . و بين العنف و الشدة ، و ذلك بالإصرار على فعل الشيء " ^(٣) .

- الالتزاميات / الوعديات : و تكمن في التزام المرسل بدرجات مختلفة إنجاز فعل ما في المستقبل (الوعد مثلاً) مع شروط الإخلاص .

- التعبيريات : و " هدفها التعبير عن حالة نفسية محددة بشرط عقد النية والصدق في محتوى الخطاب عن تلك الأمور المحددة " ^(٤) و من أمثلتها : الشكر ، و التهنئة ، و القسم و الاعتذار .

- الإخباريات / التصريحات و الإدلاءات " وجود المؤسسة ضروري في إنجاز الإدلاء بنجاح " ^(٥) .

و يميز "سيرل" بين التعبير الحرفي الدلالي للمنطوق، و بين الفعل اللغوي المباشر ، و هو المدلول عليه بصيغة الجملة ذاتها ، و الفعل

(١) علي محمود صبحي ، في البراجماتية ، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة ، دراسة دلالية ، و معجم سياقي مكتبة الآداب ، القاهرة الطبعة الأولى ٢٠١٠ ص ٢٤ .

(٢) عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية ص ١٢٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٥٨ .

(٤) السابق نفس الصفحة .

(٥) نفسه ، نفس الصفحة .

اللغوي المفاد من المقام . و بين الفعل اللغوي غير المباشر ، الذي يختلف فيه المعنى المقصود عن التعبير الحرفي الدلالي ؛ التعبير التخيلي كما يحدث في الاستعارة و التشبيه و الكناية . لذا يفترض "سيرل" أن الانتقال من الفعل اللغوي المباشر إلى الفعل اللغوي غير المباشر، يتم عبر سلسلة من الاستدلالات قوامها المعرفة المتقاسمة (اللغوية و غير اللغوية) بين المتخاطبين . وهذه المعرفة هي التي يحددها السياق المنتج لهذه الأفعال الكلامية ، و كل ما يحيط بالعملية التخاطبية من معارف مشتركة للمتخاطبين ، تمكنهم من فهم الخطاب و الوصول إلى الدلالات المتخفية في الخطاب .

٢-٢-٣ الخبر و الإنشاء و نظرية الفعل الكلامي

يكاد يجمع الدارسون المحدثون على أن ما قدمه التراث العربي^(١) في باب الخبر و الإنشاء ، لا يختلف عما تعرضه نظرية الفعل الكلامي التي قدمها "أوستين" ، وطورها "سيرل" . وجدنا ذلك في الدرس البلاغي العربي ، الذي تناول باب الخبر و الإنشاء في علم المعاني^(٢) ، وعلاقتها

بالخارج . فالخبر ، هو ما احتمل الصدق أو الكذب بالنظر إلى درجة مطابقته للخارج أو مخالفته . أما الإنشاء ، فلا يرتبط مفهومه بالصدق والكذب ، و يتميز بأن مدلوله يتحقق بمجرد النطق به .

(١) تناوله اللغويون و البلاغيون و الأصوليون .

(٢) راجع الدراسة القيمة لحليفة بوجادي نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية مشروع لربط البلاغة بالاتصال ، ضمن ندوة الدراسات البلاغية الواقع و المأمول ١٤٣٢ ، حيث استعرض فيها بصورة متميزة القيم التداولية في الدرس = البلاغي القديم ، و كذلك رسالة الدكتورة الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي من القرن الثالث الهجري إلى السابع الهجري ، إعداد واضح أحمد ، كلية الآداب و اللغات و الفنون جامعة السانبا ، وهران الجزائر ٢٠١١-٢٠١٢ .

و الطلبي منه " ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ؛ لامتناع طلب الحاصل " (١). و نجد هذه الفكرة و التي مر عرضها (أوستن) في نظرية الفعل الكلامي ، حيث ثار على آراء الوضعيين ، و ميز بين نوعي الأفعال : التقريرية و الإنجازية ، من حيث درجة تحققها في الخارج و موقف المتكلم . " من المعلوم أن الفكر اللغوي العربي القديم ، يتضمن ثنائية الخبر /الإنشاء ، التي تشبه إلى حد بعيد الثنائية الأوستينية الوصف/الإنجاز، كما يدل على ذلك تعريف القدماء للخبر و الإنشاء (٢).

فالقيم التداولية التي يحملها مفهوم : الخبر و الإنشاء ، تنطلق من تفريق البلاغيين بينهما ؛ انطلاقاً من علاقتهما بالواقع ، و بالنظر إلى مقياس الصدق و الكذب الذي يبحث في مدى مطابقة مدلول الكلام للواقع الخارجي أو انتقائها .

٢-٣ النظرية الحجاجية

يعد الحجاج من أهم النظريات التداولية ، على أساس أن الخطاب ، مجموعة من العبارات و الصيغ التي تحمل في طياتها بعداً حجاجياً موجه نحو المخاطب ، و ذلك بهدف إقناعه بمحتوى أو معلومة معينة أو التأثير فيه لذا ، وجدنا جهود الدارسين التداوليين لهذه النظرية

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان في علم المعاني و البيان ، و بهامشه ، أحمد الدمنهوري : حلية اللب المصون على الجوهر المكنون ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان دت ص ٤٨ .

(٢) أحمد المتوكل ، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري) منشورات عكاظ ، الرباط ، المغرب ١٩٨٩ ، ص ٣٧ و راجع الفكرة نفسها في محمود أهد نخله ، آفاق جديدة في البحث اللغوية المعاصر ، ص ٨٥ ، مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي

؛ بحثاً عن تقنياته و أدواته التي يحتكم إليها ، بالربط بينه و بين السياقات المقامية المختلفة . و بذلك استطاع الحجاج أن يحتل مكاناً متميزاً في صميم البحث التداولي المعاصر .

٢-٣-١ مفهوم الخطاب الحجاجي

ذكر ابن منظور أن الحجاج " من حاجةٍ محاجةٍ و حجاجاً ؛ أي نازعه الحجة " (١). و يقول الزبيدي : " حاججته أحاجةٌ حجاجاً و محاجةٌ حتى حججته ، أي غلبته بالحُجج التي أوليت لها " (٢). نستخلص من ذلك أن الحجاج لغة ، لا يعدو عن ثلاثة معانٍ رئيسة و هي : المنازعة و الغلبة بالحجة ، و المخاصمة .

و يبقى مفهوم الحجاج ، أو إطاره العام " هو أن يقدم المتكلم قولاً أو مجموعة أقوال ، موجهة إلى جعل المخاطب يقول قولاً آخر ، أو مجموعة أقوال أخرى ؛ سواء أكان صريحاً أم ضمناً . و هذا الحمل على قبول أنه نتيجة للحجة يسمى عمل المحاجة ، فالحجاج -إذن- هو علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجة " (٣). و الحجاج نشاط خطابي تداولي ؛ لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي ، يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال ، والظروف و المعارف المشتركة . و جدلي ؛ لأن هدفه إقناعي . و الحجاج يكون في الأمور المتنازع عليها و المختلفة الآراء و الأفكار . و " الحجاج في الخطابة يلجأ إليه لأهداف عدة ، منها : تحقيق الإقناع العقلي و العاطفي معا في

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ح ، ج ، ج .

(٢) الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، دار الهداية ٤٦٧/٥ .

(٣) شكري المبخوت ، نظرية الحجاج في اللغة ، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص ٣٦٠ .

استمالة الآخر ، و دفعه إلى الفعل و التغيير أحياناً " (١) ، فالخطابة - على اختلاف أجناسها - تمثل المجال الرحب الذي يتحقق في ظله الحجاج . ففيها نجد الكلام المقنع ذا التأثير في المخاطب ، المعزز بالشرح و التفصيل ، و إزاحة الغموض ، و الإبانة عن الهدف المنزوع إليه .

و قد وجد الحجاج قديماً لدى العرب ، و في التراث الإغريقي ، و اهتمت به الدراسات اللسانية الحديثة ؛ خصوصاً التداولية ، حيث " تشدد على أن سلوك الأفراد إزاء الخطاب مرهون بحجة صاحبه ، أي المتألف به ، و كذا المشروعات المرتبطة بالمنزلة المعترف بها له " (٢) .

فالحجاج إجراء يقوم به المتكلم ليوضح خطابه أو موقفه و يعلله أمام مخاطبه . فهو ليس كأبي خطاب ، بل فيه قصد الادعاء الذي اختص به المتكلم ، و قصد الاعتراض الذي هو من حق المخاطب ، فضلاً عن أن الخطاب الحجاجي ؛ يهدف إلى التوجه إلى المخاطب بغية الإفهام ، و دفعه إلى العمل و الفعل ، دون اللجوء إلى القوة و العنف في التأثير .

٢-٣-٢ مرتكزات النظرية الحجاجية

٢-٣-٢-١ الوسائل اللسانية

للسانلة اللسانية أبعاد حجاجية مختلفة ، فالمتكلم يستخدم الوحدات اللسانية ، حسب ما يريد إبلاغه من أفكار و بالقدر الذي يريد . كما يبني هذه الوحدات وفقاً لأغراض تواصلية مختلفة . و لقد اهتم التداوليون بدراسة الحجاج اللساني ، فأسس "ديكرو" نظرية تدرس

(١) ينظر ، محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، دار الكتاب المتحدة ، الطبعة الأولى ، حزيران / يونيو ٢٠٠٨ ص ٤٣ .

(٢) . دومينيك ماتقونو ، المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب ، ترجمة محمد يحياتن ، منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص ١٢ .

الوسائل اللغوية التي يمتلكها المتكلم لإقناع المخاطب . " فالعبارة في الحجاج إذا اقتضت على ظاهرها جاءت عادية أو عارضة في القول ، بحيث لا يعيرها السامع أدنى اهتمام ، أما إذا حملت معها إشارات رمزية ، فإنها ستحرك آليات الفهم و التأويل لدى المخاطب و تدفعه نحو اعتقاد ما " (١).

و من هنا يدرس الحجاج التداولي كل الأفعال الكلامية التي يتلفظ بها المتكلم إلى مخاطبه ، و التي من شأنها إفادته و إقناعه ، و تظهر الحجة من خلال أدوات لسانية خاصة ، و التي تفرض نتيجة معينة على المخاطب .

٢-٣-٢ السلام الحجاجية

يقصد بالسلم الحجاجي ، أن كثيراً من الأفعال القولية ، تحمل وظيفة حجاجية ، فهو " عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال ، مزودة بعلاقة ترتيبية و موفية بالشرطين التاليين :

- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم ، يلزم عنه ما يقع تحته ، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه .
- كل قول كان في السلم دليل على مدلول معين ، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه (٢). و هكذا يتصور "ديكرو" نظاماً للحجج قائماً على معيار التفاوت في درجة القوة و الضعف ، و على سلمية ممكنة بين الحجة الأكثر قوة ، و الحجة الأكثر ضعفاً .

(١) عبد السلام عشير ، عندما نتواصل تغيير ص ١٣١ .

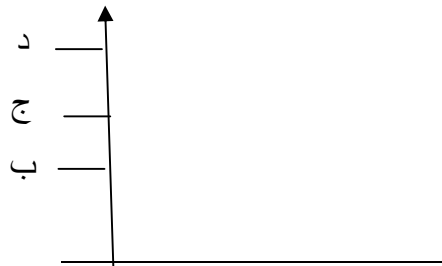
(٢) عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، مقارنة لغوية تداولية ص

و يخضع السلم الحجاجي لثلاثة قوانين تحكمه ، الأول يعرف بقانون النفي أو قانون تبديل السلم ، و يقصد به " إذا كان القول دليلاً على مدلول معين ، فإن نقض هذا القول دليل على نقض مدلوله " (١). و الثاني قانون القلب ، و يقصد به " أنه إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معين ، فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التدليل على نقيض المدلول " (٢) . أما الثالث ؛ فهو قانون الخفض ، و يقصد به " إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم ، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها " (٣).

و كما نرى ، فإن مصطلح السلم يقترب من حيث الدلالة الوظيفية من سلم المبني الذي يستعمل لأجل بلوغ طبقات المباني ، فكلاهما يعبر عن السير المرحلي المنظم ، الذي يحترم المستعمل للكلام الحجاجي من خلال مراتب و درجات الأشياء ضمن التركيبة الاجتماعية . و يتكون السلم الحجاجي من درجات تتفاوت عدداً و حجماً ، و يخضع لمراتب عالم الأشياء . و يتلون هذا التصنيف على حسب طبيعة كل سياق اجتماعي .

و المخطط التالي يبرز هذا السلم :

ن (نتيجة)



(١) طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ص ٢٧٨ .

(٢) السابق ، نفس الصفحة .

(٣) نفسه ، الصفحة ذاتها .

حيث (ب) و (ج) و (د) حجج و أدلة تخدم النتيجة (ن) .

٢-٣-٢-٣ الروابط والعوامل الحجاجية

تشكل الجملة عند "ديكرو" و "أنسكومبر" وجهة حجاجية ، و ذلك على المستوى المعجمي و الإعرابي . فهي تتحدد معناها قبل استعمالها في الخطاب ، لكن عند استعمال الجملة في المقام ، فإن هذا الاستعمال يفرض مجموعة من النتائج دون غيرها . و هذا يستلزم وجود مكونات لغوية مختلفة ، تحدد معناها ، أو تضيق المعنى ، أو توسع من احتمالاتها الحجاجية . و هذه المكونات أو الروابط هي التي تحدد طرق الربط بين الحجة و النتيجة التي ترمي إليها .

فالرابط الحجاجي " وحدة مورفولوجية (مورفيم) تصل بين ملفوظين أو أكثر ، جرى سوقهما في إطار استراتيجية واحدة " (١) . و قد تتمثل هذه الوحدات من عناصر نحوية و ظروف (الواو، الفاء) لكن ، إذن ، حتى ، لأن ، بل ، لاسيما ، بما أن ، إذ ، لا .. إلا ... الخ) . و تقوم بالربط بين فعلين لغويين ؛ لإيجاد وحدة حجاجية متكاملة . فالربط قرينة لفظية تعمل على اتصال أحد المترابطين بالآخر . و هو إحدى الوسائل التي يتحقق بها الاتساق ، و تشمل بعداً تداولياً مهماً .

أما العوامل الحجاجية ، فهي التي تعمل على تكثيف المكونات الحجاجية ، و تقييدها لنص ما ، أي القيام بالربط بين وحدتين دلالتين داخل الملفوظ اللغوي الواحد ؛ بهدف زيادة النتيجة التابعة وراء ذلك الحجاج : و شحن الكلام ليؤدي وظيفة تتلاءم مع مقاصد المحاجج " (٢) .
و العوامل الحجاجية في العربية : كأدوات النفي ، أدوات القصر ،

(١) شكري المبخوت ، نظرية الحجاج في اللغة ، ص ٣٧٦ .

(٢) عز الدين التاج ، العوامل الحجاجية في اللغة العربية ، مكتبة علاء الدين للنشر و التوزيع ، صفاقس ط ٢٠١١ ص ١٦ .

التوكيد ، أو بعض المكونات المعجمية مثل : (ربما ، تقريباً ، كاد ، قليلاً ، كثيراً ، منذ الظرفية ، في الأقل) .. فالعامل الحجاجي لا يربط بين الحجة و النتيجة ، بل تنقيد الجملة بعده بإمكانات حجاجية ، و يتم الإسناد فيها في بعض الأساليب .

و لقد تضمنت الدراسات العربية القديمة - على اختلافها - إشارات واضحة إلى الحجاج ، و إن اختلفت التسميات تبعاً لاختلاف توجهاتهم - كما لعب الحجاج دوراً مهماً في الحياة العربية القديمة (عقدياً ، سياسياً ، اجتماعياً) فكانت استراتيجية الحجاج واضحة في القرآن الكريم ، و الحديث النبوي الشريف و في الخطابات المختلفة . و قد اهتم البلاغيون بالحجاج و الإقناع ، و يعد الحاجز أبرز هؤلاء الأعلام الذين حاولوا التعميد لهذه الاستراتيجية ، و ذلك في كتابه : البيان و التبيين . و من العناصر الحجاجية التي اهتم بها الجاحظ " مقتضيات المقام و ما تشمله من أحوال الخطيب ، و كفاءته اللغوية ، و هيئته و صفاته الخلقية ، و ما يحسن عليه و ما يقبح ، فالجاحظ دائم الإلحاح على الشروط اللازم توفرها في المتكلم ، من حيث الخبرة و الحذف للآلة البلاغية و النصوص الاستشهادية الضرورية لكل حجاج ، علاوة على تخير القالب اللغوي الكفيل بإنجاح الفحوى و المقاصد و دفع السامع إلى تحقيق المضامين النصية" (١).

(١) محمد سالم الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص ٢١٤ .

كما ميزت البلاغة العربية بين ثلاثة مخاطبين^(١):

- المخاطب خالي الذهن من الحكم التي تضمنه الخبر ، و يكون بأن يُفرغ المتكلم ما ينطق به في قالب الإفادة ، و أن يقصد في خبره ذلك إفادة المخاطب ، و هو خبر ابتدائي .

- المخاطب الشاك المتردد ، يكون حين يتردد المخاطب في حكم الخبر ، ولا يعرف مدى صحته ، كأن يتصور طرفي الخبر و يتردد في إسناد أحدهما إلى الآخر فيلجأ المتكلم إلى إنقاذه من الحيرة ، وكأنه يلقي الخبر إلى طالب ما ، ويستحسن تقويته بإدخال (اللام) أو (إن) على الجملة .

و يسمي الخبر عندها : خبراً طلبياً .

- المخاطب الجاحد المنكر للخبر إنكاراً يحتاج إلى أن يؤكد بأكثر مؤكد ، ذلك أن المخاطب حاكم في الخبر بخلافه ، و لذلك وجب على المتكلم رده إلى حكمه ، و هو خبر إنكاري .

استنتاجات

بعد اختيار آليات المنهج التداولي ، وتوضيح مفاهيمها وأطرها الإجرائية ؛ للوقوف على صلاحيتها للتطبيق على النص الخطابي ، يمكن أن نقف عند النقاط التالية :

١- تقوم الخطابة على مقدمات محتملة الصحة ، و على الإقناع والاستمالة ، فهي صناعة قولية ، تدرج من هذه الزاوية ضمن أهم المجالات الأدبية التواصلية .

(١) السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص ١٧٠-١٧١ .

- ٢- كشف المبحث عن الآليات الإجرائية للمنهج التداولي في مقاربة النص الخطابي توقف عندها لما رآه مناسباً للتطبيق عليه .
- ٣- تركز التداولية على اللغة في استعمال المتكلمين ، و على وصف شروط التواصل و التبليغ التي تحكمهم .
- ٤- للمتكم دور بارز في الدرس التداولي ، بوصفه منتج الخطاب و باعته ، و هو وحده الذي يستطيع تحديد الدلالات و مقاصدها .
- ٥- تتوقف معرفة النص الخطابي على معرفة القصد توقفاً رئيسياً ، باعتباره معبراً عن ذات/خطيب ، و أن كثيراً من التباسات النصوص الخطابية مرجعها لالتباسات في إدراك القصد .
- ٦- للقصد أنواع تؤدي معرفتها إلى إدراك كنه الطبيعة التركيبية للنص الخطابي .
- ٧- إن إنتاج المتكلم/الخطيب ، كان وفقاً لنوع معين من المقاصد ، و لا يقف دور القصد عند إيجاد العلاقة الدلالية اللغوية ، بين الدال و المدلول ، بل يمتد إلى استعمالها في الخطاب لاحقاً .
- ٨- لكل جملة حوارية عدة دلالات ، منها ما هو منطقي و حقيقي ، و منها ما هو خاطئ و غير معقول ، و يرتبط هذا بطبيعة حال المتكلم ، فتأويل الكلام يكون على أساس الناطق به .
- ٩- يشترط وجود معرفة مشتركة بين المتخاطبين ، تساعد في الفهم و التأويل كما تعكس مقدار المسافة بينهم .
- ١٠- إن سيرورة العمل التخاطبي للوصول إلى المعنى ، يتحدد عبر سيرورة خطية تتطلق من المتكلم الذي يحاول إنجاز خطابه ، مروراً بمحتوى الرسالة و ما يستلزمها من خصائص تضمن نجاح التواصل ، وصولاً لاحتياجات السامع الذي يكيف الرسالة وفق احتياجاته .

- ١١- أدرك الدرس اللغوي العربي القديم بعض القيم التداولية الحديثة فاستخدم مفهوم الاستلزام الحوارى باعتباره إشكالاً دلاليّاً يبرز من حين إلى آخر أثناء الخطاب .
- ١٢- اهتمت التداولية اهتماماً كبيراً بمفهوم السياق ، و دوره في إظهار البعد الوظيفي أو الأيديولوجي للنص الخطابى .
- ١٣- تأصل مفهوم المقام / السياق في الدرس العربى القديم ، فبرز في صورة نظرية متماسكة الأركان و تتحقق في عدة علوم عربية قديمة ، و ظهر بمظهر الوضوح المنهجي مما يحسب للدرس العربى القديم .
- ١٤- تعنى التداولية في إجراءاتها التطبيقية بفهم الجملة الواحدة من النص ، فتذهب في البحث عن طبيعة وضعها ؛ انطلاقاً من العناصر المعجمية إلى المؤشرات النظامية أو المعطيات السياقية.
- ١٥- لمقولة التلطف في النظرية التداولية أهمية قصوى ، باعتبارها الجهة التي يدرك من خلالها المتكلم العالم باستعماله للغة . و أنتج مفهوم : أوضاع التلطف سواء من جهة المتكلم أو المخاطب في علاقته بالمتلطف . كما وقفت عند مرجعيات التلطف : المتكلم ، المخاطب ، الزمان ، المكان ، و المؤشرات الملفوظية الدالة عليها.
- ١٦- اهتم منظرو التداولية بنظرية الفعل الكلامى ، و لم نقصد به الحدث الصوتى فقط ، و إنما ذلك الفعل اللغوى الذى يترك أثراً بعد إنجازة ، و ذلكفى سياق معين ، وفقاً لظروف تبليغية مناسبة.
- ١٧- ميز المنظرون التداوليون بين الفعل اللغوى المباشر ، و هو المدلول عليه بصيغة الجملة ذاتها ، و الفعل اللغوى المفاد من المقام ، و بين الفعل اللغوى غير المباشر الذى يختلف غير المعنى المقصود من التعبير الحرفى الدلالي كما فى التعبير التخيلى .

- ١٨- تأصلت في الدرس العربي القديم نظرية تقف على حدود نظرية الفعل الكلامي التداولية ، ألا و هي نظرية الخبر و الإنشاء ، و تمت معالجتها بمفاهيم تقترب من المقاربة التداولية الحديثة .
- ١٩- عُدّ الحجاج من أهم النظريات التداولية المعاصرة ، على أساس أنه خطاب يضم مجموعة من العبارات و الصيغ التي تحمل في طياتها بعداً حجاجياً موجه نحو المخاطب بهدف إقناعه أو التأثير فيه و وقفوا على آلياته و تقنياته في إنجاز النص الخطابي .
- ٢٠- يحسب للدرس العربي القديم نحته لمفهوم الحجاج في جدارية الدرس اللغوي و البلاغي و الأصولي .
- و وقفت البلاغة العربية عند مفاهيم عدة تقترب مضمونها من الدرس التداولي المعاصر .

خاتمة

الخطابة والتداولية : محاولة اقتران

بعد استعراض البحث للزوج : الخطابة - التداولية ، و الوقف عند مفاهيم كل منهما ، يمكننا أن نطرح السؤال التالي ، هل يمكننا الاستعانة بالمنهج التداولي في تلقي النص الخطابي ؟
تعنى الخطابة بإيصال قيم معينة من ذات متحدثة إلى متلق وفقاً لظروف مقامية مختلفة ؛ بهدف الإقناع و الاستمالة . و تهتم التداولية بدراسة العملية التواصلية بكل معطياتها و مقتضياتها ، فهي فن دراسة الملفوظات في سياقها . كما تهتم بالتأثيرات التي تحدثها بعض الوسائط التواصلية ، و تركز على المرسل و المتلقي و الرسالة و عملية التأثير و التأثر و القصد و نوايا المتكلم و الفائدة من الكلام و الإفهام ...

كما تركز الإجراءات التداولية في تحليلها للخطاب على الجوانب التداولية و السياقية التي تضبط مقاصد النص و غياته . حيث يمثل النص الأدبي حقلاً تواصلياً ، يؤكد أهمية السياق في تفسير الكلام و تأويله .

ولقد عرف الدرس البلاغي العربي القديم نظرية بلاغية ، هي نظرية التواصل التي لا تختلف عند كثير من الدارسين مما تعرضه اللسانيات التداولية الحديثة . فالبلاغة العربية في أوجز تعريفاتها ، هي مطابقة المقال لمقتضى الحال ، و هي بذلك لا تختلف عن اهتمامات اللسانيات التداولية ، التي هي دراسة اللغة حال الاستعمال ، أي الكلام بما يكتنفه من أحوال المتكلمين و عناصر المقام ، و كل ملابسات التواصل . و بذلك فهما متداخلان ، لا اشتراكهما في هذه القضايا و غيرها .

و من خلال هذا العرض للدرس التداولي ، و أبرز نظرياته التي اهتمت بمعالجة اللغة في الاستعمال و التواصل ، نخلص إلى القول: إن هذه المعطيات و المفاهيم التي ظهرت في هذا المجال اللغوي و العلمي

الواسع ، أضحت من الآليات اللسانية التداولية التي تسهم في فهم الخطاب ، و الوقوف على مقاصده ، و إدراك كنهه ، و ذلك في أي جنس من أجناس الخطابة . و بهذا تشكل نمطاً جديداً في دراسة الخطاب منذ كونها فكرة في الذهن إلى إلقائها أمام الجمهور وصولاً إلى رد فعل المتلقي.

مقترحات و توصيات :

يمكننا التوسع في تطبيق المنهج التداولي على الأجناس الأدبية المختلفة ؛ كالرسائل الأدبية . فهناك قيم أدبية ذات قيمة تداولية ناتجة من التفاعل بين المتخاطبين في الرسائل الأدبية . و يبدو المجال الأدبي الذي تتضح فيه طاقة الأجناس التداولية ، هو الرسائل الأدبية المتبادلة بين الكتاب بوجه خاص . فالمراسلات القديمة و الحديثة على السواء هي أجناس تخاطبية تفاعلية ، تنتظم في أعمال قولية ذات طبيعة إنجازية تداولية أو إقناعية ، و تكثر فيها أعمال الإقناع و الاستمالة و غيرها من أساليب الخطاب الحجاجي .

و نستطيع من خلال درس التداولي للرسائل ، الوقوف على المفاهيم النظرية و الإجرائية الناجعة ، التي تمكننا من فهم شعرية الأجناس الرسائلية و تحليلها .

المكتبة

أولاً : الكتب العربية

(أ)

١ - أحمد عزت راجح

_ أصول علم النفس ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ، القاهرة ط ٧ ، ١٩٦٨

٢ - أحمد المتوكل

_ اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري) منشورات عكاظ ، الرباط ، المغرب ١٩٨٩

٣ - إدريس مقبول

_ في تداوليات القصد ، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد ٢٨ (٥)

٢٠١٤

٤ - إيليا حاوي

_ فن الخطابة و تطوره عند العرب ، دار الثقافة ببيروت

(ت)

١ - التهاتوني

كشاف مصطلحات الفنون ، تحقيق لطفي عبد البديع ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مصر

٢٩١/٢

(ج)

١ - جاسم محمد العبود

_ مصطلحات الدلالة العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط ١ ، سنة ٢٠٠٧

٢ - الجاحظ

_ البيان و التبيين ، تحقيق عبد السلام هارون

٣ - الجرجاني

_ معجم التعريفات ، تحقيق ، محمد صديق المنشاوي دار الفضيلة ، القاهرة

٤ - جميل حمداوي

_ من الحجاج إلى البلاغة الجديدة ، ط أفريقيا الشرق ٢٠١٤

(ح)

١ - حسن يوسف

_ المسرح والتداولية ، مقال ، موقع ، محمد أسلم .

٢ - حمادي صمود

_ مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب ، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من

أرسطو إلى اليوم ، إشراف حمادي صمود ، سلسلة الآداب جامعة الآداب و الفنون و العلوم

الإنسانية تونس

(خ)

- ١ - خليفة بوجادي
_ في اللسانيات التداولية ، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، بيت الحكمة للنشر و التوزيع ، العلمة ، الجزائر.
- ٣ - خميس فزاع عمير ، عمر علي محمد
_ نظريات المنهج التداولي عند علماء جامعة أكسفورد تحليل وصفي تطبيقي ، مجلة الفنون و الأدب و علوم الإنسانيات و الاجتماع ، العدد ٥ ، نيسان ، أبريل ٢٠١٤
(د)
- ١ - دليل محمد زيان بو زيان ، وآخرون
_ تجليات علاقة اللفظ بالمعنى في الفكر اليوناني ، من خطاب البنية إلى بنية الخطاب ، ضمن كتاب اللغة و المعنى ، مقاربات في فلسفة اللغة ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠
(ذ)
- ١ - ذهبية حمو الحاج
_ لسانيات التلطف و تداولية الخطاب ، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع
(ر)
- ١ - ابن رشد
_ تلخيص الخطابة ، تحقيق ، عبد الرحمن بدوي ، بيروت د.ت
(ز)
- ١ - الزبيدي
_ تاج العروس من جواهر القاموس ، دار الهداية
- ٢ - الزركشي
_ المنشور في القواعد الفقهية ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، الكويت ١٩٨٤
(س)
- ١ - السكاكي
_ مفتاح العلوم ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ط ١ ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
- ٢ - سمير أبو حمدان
_ الإبلاغية في البلاغة العربية ، منشورات عويدات الدولية ، بيروت ، لبنان
- ٣ - السيوطي
_ شرح عقود الجمان في علم المعاني و البيان ، و بهامشه ، أحمد الدمنهوري : حلية اللب المصون على الجوهر المكنون ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان
(ش)
- ١ - الشاطبي

- _ الموافقات ، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان ، دار ابن عقان
- ٢- شكري المبخوت
- _ نظرية الحجاج في اللغة ، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم
إشراف حمادي صمود ، سلسلة الآداب جامعة الآداب و الفنون و العلوم الإنسانية تونس.
(ص)
- ١- صالح بن الهادي رمضان
- _ التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية ، المركز الثقافي العربي ط ١ ، ٢٠١٥
- ٢- صلاح فضل
- _ بلاغة الخطاب و علم النص ، سلسلة علم المعرفة ، الكويت ، صفر ١٤١٣ هـ / أغسطس
١٩٩٢ م
(ط)
- ١- طه عبد الرحمن
- _ اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط ،
١٩٩٨ .
(ع)
- ١- عبد السلام عشير
- _ عندما نتواصل نغير ، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل و الحجاج ط أفريقيا الشرق ،
المغرب ٢٠٠٦
- ٢- عبد السلام المسدي
- _ التفكير اللساني عند العرب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ط ١ ، ١٩٨١
- ٣- عبد الهادي بن ظافر الشهري
- _ استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، الطبعة الأولى ،
٢٠٠٤ .
- ٤- عبد النعيم خليل
- _ نظرية السياق بين القدماء والمحدثين : دراسة لغوية نحوية دلالية ، دار الوفاء للنسر ،
الإسكندرية .
- ٥- العسكري
- _ كتاب الصناعتين ، الكتابة و الشعر ، تحقيق ، علي محمد الجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ،
دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٩٥٢
- ٦- عز الدين
- _ العوامل الحجاجية في اللغة العربية ، مكتبة علاء الدين للنشر و التوزيع ، صفاقس ط ١ ٢٠١١
- ٧- عصام خلف كامل

- _ مفهوم الخطاب في الدراسات الأدبية و اللغوية المعاصرة ، دار فرحة للنشر و التوزيع ، بيروت، لبنان ط ١ ، ٢٠٠٠
- ٨- عمر بلخير
- _ تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية ، منشورات الاختلاف ، ط ١ ، ٢٠٠٣ .
- ٩- العياشي أدراوي
- _ الاستنزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية الظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ط ١ ٢٠١١
- (ف)
- ١- ابن فارس
- _ معجم مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر بيروت لبنان ط ٢ ، ١٩٧٩ .
- ٢- الفراهيدي
- _ كتاب العين ، تحقيق ، عبد الحميد هندواي ، دار الكتب العلمية .
- (ق)
- ١- القاضي عبد الجبار
- _ المغني في أبواب التوحيد والعدل ، تحقيق ، د/ خضر محمد نيهما ، المملكة العربية السعودية ، ٢٠١١ .
- ٢- ابن قتيبة الدينوري
- _ أدب الكاتب ، حققه وعلق على حواشيه ، ووضع فهرسه ، محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة.
- (ل)
- ١- لينده قياس
- _ لسانيات النص ، النظرية و التطبيق مقامات الهمذاني أنموذجاً - تقديم عبد الوهاب شعلان ، مكتبة الآداب ، ٢٠٠٨
- (م)
- ١- محمد أبو زهرة
- _ الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى مارس ١٩٣٤
- ٢- محمد سالم الأمين الطلبة
- _ الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في بلاغة النقد المعاصر دار الكتاب المتحدة ، الطبعة الأولى حزيران / يونيو ٢٠٠٨
- ٣- محمد طاهر
- _ الخطابة في صدر الإسلام ، العصر الديني ، عصر البعثة الإسلامية ، دار المعارف ١٩٦٥
- ٤- محمد العمري

- _ في الخطاب الإقناعي مدخل نظري و تطبيقي لدراسة الخطابة العربية ط٢ أفريقيا الشرق ٢٠٠٢
- _ البلاغة العربية ، أصولها وامتداداتها ، ط، أفريقيا الشرق ، ١٩٩٩ .
- _ البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ، ط، أفريقيا الشرق ٢٠١٢
- ٥- محمد بركان
- _ الاتصال الإقناعي من خلال الخطابة مقارنة نظرية مع دراسة تحليلية لنماذج من خطب الإمام علي بن أبي طالب ، ماجستير كلية الآداب و اللغات ، جامعة الجزائر ، ٢٠٠٢
- ٦- محمد أحمد نحل
- _ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، ط١ ، ٢٠٠٢
- ٧- مسعود صحراوي
- _ التداولية عند العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، ط دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الأولى تموز (يوليو) ٢٠٠٥ .
- ٨- ابن منظور
- _ لسان العرب ، دار الكتب المصرية .
- (ن)
- ١- النصير الزغول و عماد عبد الرحيم الزغول
- _ علم النفس المعرفي ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن
- ٢- النويري
- نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق ، مفيد قميحة ط١ دار الكتب العلمية ، بيروت
- (هـ)
- ١- هشام الرفي
- _ الحجاج عند أرسطو ، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية عن أرسطو إلى اليوم إشراف حمادي صمود ، سلسلة الآداب جامعة الآداب و الفنون و العلوم الإنسانية تونس .
- ثانياً : الكتب المترجمة
- (أ)
- ١- أرسطو
- _ الخطابة ، الترجمة العربية القديمة ، تحقيق و تعليق عبد الرحمن بدوي ، دار العلم ، بيروت ، لبنان ١٩٧٩
- ٢- ابن رشد
- _ تلخيص الخطابة ، تحقيق ، عبد الرحمن بدوي ، بيروت ، د. ت
- ٣- فرانسواز أرمينكو
- _ المقارنة التداولية ، ترجمة سعيد علوش ، مركز الإنماء القومي .

(ب)

١- ج . ب براون

_ تحليل الخطاب ، تحقيق محمد لطفي الزليطي ، منير التريكي ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، النشر العلمي

٢- جان بيلمان

_ التحليل النفسي و الأدب ، ترجمة حسن المودن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٧

(ر)

١- روبول

_ التداولية اليوم ، علم جديد في التواصل ، ترجمة سيف الدين دغفوس ، محمد الشيباني ، مراجعة لطيف زيتوني ، المنظمة العربية للترجمة بيروت

(م)

١- روبيان مارتان

_ مدخل إلى فهم اللسانيات ، ترجمة عبد القادر المهيري ، مركز دراسات الوحدة العربية ط ١ ، ٢٠٠٧

٢- دويمينك ماتقونو

_ المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب ، ترجمة محمد يحياتن ، منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥